مركز حرمون
للدراسات المعاصرة
HARMOON
Araştırmalar Merkezi
For Contemporary Studies

سورية تحت حكم الأسد:
حالة نظام أبوي جديد (نيو باترموني)

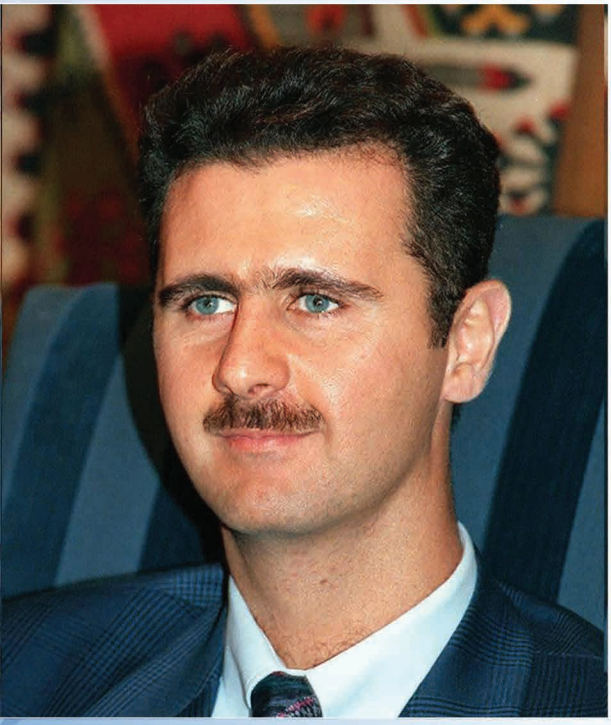

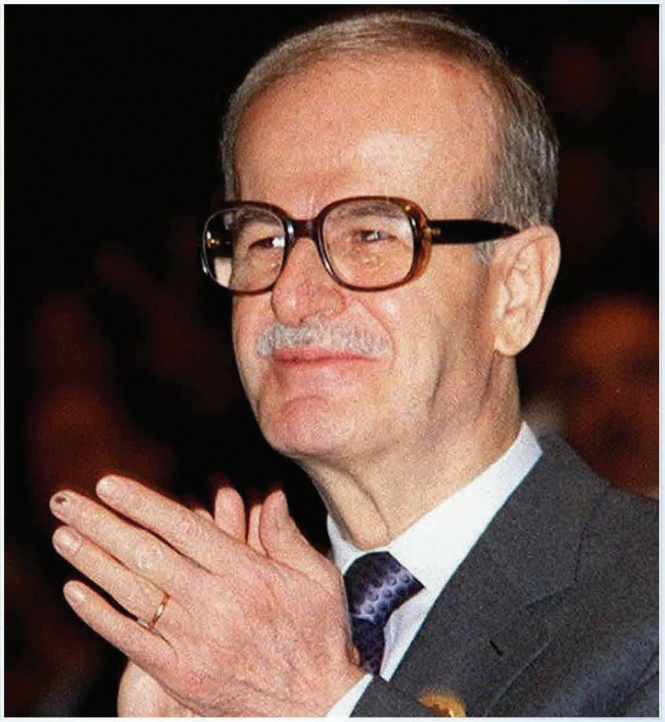

ترجمة: أحمد عيشة

ترجمات

مركـــز حرمـون
للدراســات المعاصــرة

هو مؤسّسة بحثية مستقلة، لا تستهدف الربح، تُعنى بإنتاج الدراسات والبحوث السياسية والمجتمعية والفكرية المتعلقة بالشأن السوري خاصة، والصراع الدائر في سورية وسيناريوهات تطوره، وتهتم بتعزيز أداء المجتمع المدني، ونشر الوعي الديمقراطي. كما تهتم أيضًا بالقضايا العربية، والصراعات المتعلقة بها، وبالعلاقات العربية الإقليمية والدولية .

يُنفذ المركز مشاريع ونشاطات، ويُطلق مبادرات من أجل بناء مستقبل سورية، على أسس وقيم الديمقراطية والحرية والمساواة وحقوق الإنسان وقيم المواطنة المتساوية، ويسعى لأن يكون ميدانًا للحوار البنّاء، وساحة لتلاقي الأفكا ر

قسم الدراسات:

يُقدِّم هذا القسم الدراسات العلمية والموضوعية التي تناقش القضايا السورية الأساسية، وتعالج المشكلات الرئيسة، وتقترح الحلول والبدائل المناسبة، وهو مسؤول عن إنتاج المواد البحثيّة العلمية الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والثقافية والتربوية، التي تستند إلى جهدٍ بحثيّ أصيل ورصين يتوافق مع أصول العمل البحثيّ العلمي.

يحرص قسم الدراسات على تقديم قراءات للواقع الراهن، ويضع على جدول أعماله إنتاج دراسات من الفئات البحثية كافة، بهدف إعادة بناء المنظومة الفكرية والسياسية والقانونية والثقافية والتربوية في سورية المستقبل، ويستكشف التأثيرات المتبادلة بين السياسة والاقتصاد والقانون والمجتمع والفكر، ويبحث في تأثيرات الحرب السورية وسبل تجاوزها في المستقبل في نظام ديمقراطي تعددي تداولي.

سورية تحت حكم الأسد: حالة نظام أبوي جديد (نيو باترموني) [*]

اسم المادة الأصلي	Syria Under al-Assad Rule: A Case of Neopatrimonial Regime
الكاتب	بلال سلايمه، Bilal Salaymeh
مكان النشر وتاريخه	مركز دراسات الشرق الأوسط، Center for Middle Eastern Studies، 15 كانون الأول/ ديسمبر 2018
الرابط	https://bit.ly/3tY43Tk
عدد الكلمات	10430
ترجمة	وحدة الترجمة/ أحمد عيشة

المحتويات

ملخص 4

مقدمة 6

نقص التصورات المفاهيمية الأخرى 9

الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) لنظام الأسد 12

إضفاء الطابع الشخصي على (شخصنة) النظام السوري: سورية الأسد 13

حاشية الأسد 14

عبادة شخصية الأسد 17

سياسة الرعاية في سورية 20

الرعاية العلوية 21

رعاية حزب البعث 24

الزبائنية في نظام الأسد 27

حقبة حافظ الأسد ومجتمع الأعمال (البزنس) 29

في ظل حكم بشار: من الزبائنية إلى الرعاية 31

الخاتمة 33

توضيح لآليات السيطرة والاختراق للهيمنة الأبوية المشخصنة الجديدة لنظام الأسد 34

[*] - باترموني: شكل من أشكال التنظيم السياسي الذي تستند فيه السلطة بشكل أساسي إلى السلطة الشخصية التي يمارسها الحاكم، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. وبحسب قاموس أكسفورد: شكل من أشكال الهيمنة السياسية، وصفه ماكس فيبر (الاقتصاد والمجتمع، 1920)، حيث تستند السلطة إلى السلطة الشخصية والبيروقراطية التي تمارسها الأسرة المالكة، حيث تكون هذه السلطة تعسفية رسميًا، وتحت السيطرة المباشرة للحاكم. يشير هذا المعيار الأخير إلى أن الهيمنة يتم تأمينها عن طريق جهاز سياسي يعمل به عبيد، أو مرتزقة، أو مجندون، أو مجموعة أخرى (ليست أرستقراطية تقليدية تمتلك الأرض) ليس لها قاعدة سلطة مستقلة. من خلال التحكم في أدوات السلطة بهذه الطريقة، يمكن للحاكم الموروث أن يقدّم النعمة والمزايا الشخصية. ويمكن أن تقترب السلطة الأبوية مما يسميه فيبر «السلطانية».

وفي تعريف آخر، هي شكل من أشكال الحكم تتدفق فيه كل السلطات مباشرة من القائد. لا يوجد فيه تمييز بين المجالين العام والخاص: «جوهر الميراث يكمن في الفكرة القائلة بأن السلطة الحكومية بأكملها، والحقوق الاقتصادية المرتبطة بها، يتم التعامل معها على أنها مزايا اقتصادية خاصة» (ميدارد، 1996). هذه الأنظمة استبدادية أو أنظمة أقلية، تستبعد الطبقات الدنيا والمتوسطة والعليا من السلطة. يتمتع قادة هذه الدول عادة بالسلطة الشخصية المطلقة. عادة، تكون جيوش هذه الدول موالية للقائد وليس للأمة.

وبحسب «ماكس فيبر»، هي شكل من أشكال السلطة التي تكون فيها الدولة حيزًا للسلطة الشخصية لقائد أو عدد قليل من القادة، بحيث لا يكون هنالك تمايز واضح بين «المؤسسة» والشخص»، وتقوم علاقة السلطة الباترومونية مع اتباعها على علاقات وتبادلات شخصانية قد تأخذ شكل الهبة المادية أو منح المنزلة أو الولاء الشخصي. أما الـ «نيو - باترومونية» فهو مفهوم تطور، منذ سبعينيات القرن العشرين، للإشارة بشكل خاص إلى أنظمة السلطة في أفريقيا وبعض بلدان العالم الثالث الأخرى، حيث توجد مؤسسات «حديثة» للسلطة، لكنها مخترقة من استمرارية العلاقات الباترومونية، أو متكيفة معها.

ملخص

تهدف هذه الورقة إلى وضع تصوّر مفاهيمي للنظام السوري، في ظلّ حكم حافظ وبشار الأسد (1970-2011)، باعتباره نظامًا أبويًا جديدًا (نيو - باترموني). وتزعم الورقة أن السيطرة الأبوية لنظام الأسد تستند إلى ثلاثة أركان رئيسة: شخصنة النظام؛ شبكات الرعاية؛ الزبائنية [**].

تحت العنوان الفرعي لشخصنة النظام السوري، تحاول الورقة تحديد العملية التاريخية، والآليات المستخدمة لشخصنة النظام في عهد حافظ وبشار الأسد، وتحليلها، من خلال استخدام الزمرة/ الشلّة الشخصية، والعبادة الشخصية المفروضة. وبعده، تستعرض الورقة شبكات الرعاية المزدوجة التي استخدمها نظام الأسد لتوطيد هيمنته الشخصية، من خلال اختراق المجال البيروقراطي والمجتمع؛ شبكات الرعاية العلوية، وشبكات رعاية حزب البعث. وفي السياق نفسه، تقيّم الورقة نزعة الزبائنية بوصفها آلية أخرى تعمل في عمليات التغلغل الأبوي (الباترموني)، ولا سيّما في المجال الاقتصادي، والتغييرات التي حدثت في هذا الصدد، في ظلّ حكم بشار الأسد.

[**] - الرعاية (Patronage) هي الدعم، أو التشجيع، أو الامتياز، أو المساعدة المالية التي تمنحها منظمة أو فرد لآخر. في تاريخ الفنّ، تشير رعاية الفنون إلى الدعم الذي قدّمه الملوك والباباوات والأثرياء للفنانين مثل الموسيقيين والرسامين والنحاتين. والرعاية السياسية هي تعيين شخص في منصب حكومي على أساس الولاء الحزبي. يستخدم المسؤولون المنتخبون على المستويات الحكومية الوطنية والمحلية مثل هذه التعيينات لمكافأة الأشخاص الذين يساعدونهم في الفوز بالمناصب والحفاظ عليها. هذه الممارسة أدّت إلى القول، "الغنائم للمنتصر". وفي أحد أشكالها، هي تبديد موارد الدولة كمكافأة على الدعم السياسي والانتخابي. يمكن أن تشمل موارد الدولة عقود القطاع العام المربحة، أو دورًا مرموقًا في الوظائف المدنية.

أما الزبائنية (Clientism)، فهي منح الحماية أو الدعم والرعاية لجميع العملاء أو عملاء الشركة والزبائن، من خلال منح الامتيازات السياسية، مثل التعيين في المناصب الحكومية مقابل الدعم السياسي. وفي تعريف آخر لها، هي تبادل السلع والخدمات للحصول على دعم سياسي، وغالبًا ما تنطوي على مقايضة ضمنية أو صريحة، وعلى علاقة غير متكافئة بين مجموعات من الفاعلين السياسيين يوصفون بأنهم رعاة وسماسرة وعملاء. وهي علاقة بين الأفراد ذوي الوضع الاقتصادي والاجتماعي غير المتكافئ ("المعلم/ الراعي و "عملائه")، وتنطوي على تبادل للسلع والخدمات على أساس ارتباط شخصي يُنظر إليه عمومًا من منظور الالتزام الأخلاقي. وبهذه الطريقة، فالزبائنية ظاهرة حدثت في كثير من السياقات الاجتماعية المختلفة، سواء كانت بين الأرستقراطيين وأتباعهم في روما القديمة، أم بين اللوردات وأقنانهم في العصور الإقطاعية، أم بين كبار ملاك الأراضي والفلاحين في العديد من المجتمعات الريفية. لم تختف العلاقات الزبائنية مع ظهور الدول الحديثة أو تحولها إلى الديمقراطية منذ نهاية القرن التاسع عشر. ومع ذلك، خلال هذه العملية، تغيرت هذه العلاقات بطريقتين. فمن ناحية، اكتسبت بُعدًا سياسيًا على وجه التحديد من خلال اندماجها في المؤسسات السياسية لكل نظام، ومن ناحية أخرى، أصبحت عقبات أمام كفاءة هذه المؤسسات، واحترام

القيم الديمقراطية، ومن ثم لاقت مزيدًا من الإدانة.

مقدمة

يتمتع النظام السوري في عهدي الأسد، حافظ وبشار الأسد (1970-2011)، وهو الذي عزّز نفسه من خلال عملية تاريخية طويلة، بميزات عدة تجعل من الأفضل وصفه بالنظام الأبوي الجديد (نيو باترموني). مؤسس هذا النظام الأبوي الجديد هو بلا شك حافظ الأسد [1] الذي استولى على السلطة، بعد سلسلة من عمليات التطهير داخل المجلس العسكري انتهت بانقلاب عام 1970. النظام الذي وضع الأسد الأب معالمه وآلية هيمنته سُلِّم بسلاسة إلى نجله بشار الذي تولى السلطة بعد وفاة والده، حيث يستمر في الحكم من خلال الآليات الأبوية الجديدة (نيو باترمونية).

إن تصنيف الأبوي الجديد (نيو باترمونية) هو تكيّف حديث لنموذج الحكم الأبوي (الباترموني) الفيبري، الذي ينتمي إلى عالم الأنظمة الاستبدادية. وهو يمثّل خليطًا من نوعين متعايشين من الهيمنة على وجه التحديد: الهيمنة البيروقراطية التوريثية (الباترمونية)؛ الهيمنة القانونية. تحلُّ الأبوية الجديدة عندما تخترق العلاقة الأبوية (الباترمونية) المجال البيروقراطي، من خلال آليات الرعاية والزبائنية، بهدف السيطرة عليها لصالح الأب (الباتريمون، patrimony). وبذلك، فإن علاقات الرعاية والزبائنية شرط لا غنى عنه لتحقيق الأبوية الجديدة.

(1) - في هذه الورقة، سيتم استخدام كلمة الأسد كما هو واضح في الأصل العربي للإشارة إلى اسم العائلة، ومن هنا سيكتب حافظ الأسد، وبشار الأسد، وعائلة الأسد على النحو التالي. ومع ذلك، انسجاما مع الاستخدام العام في الأوساط الأكاديمية والإعلامية، سيتم استخدام نظام الأسد للإشارة إلى نظام حافظ وبشار الأسد.

كان ماكس فيبر (Weber) قد ذكر النزعة الباترمونية (patrimonialism) كواحدة من ثلاثة نماذج أصيلة للهيمنة، مشددًا على دور الحكم الشخصي في هذا النوع من الهيمنة [2]. فيما بعد، قام إيزنشتات [3] بتعديل المفهوم ليشمل كلًا من الأبوية (الباترمونية) الفيبرية التقليدية، والسيطرة البيروقراطية العقلانية "الجديدة". يجادل بيتر باولكا (Peter Pawelka) [4] بأنه سيكون هناك قاعدتان لإضفاء الشرعية على الأنظمة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية). بالإضافة إلى الولاء التقليدي (مثل التوريث)، جادل باولكا بأن المكافأة العسكرية (تخصيص الوظائف والعطايا ... إلخ) هي قواعد لإضفاء الشرعية على الأنظمة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية). مهّدت هذه الحجة الطريق لعلماء آخرين، مثل ميدراد [5] وبراتون وفان دو فالي [6]، وجيرو وإردمان وأولف إنغل [7] وباخ [8]، لمعالجة دور علاقات الزبائنية والرعاية في بناء الأنظمة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية). وهكذا، بالإضافة إلى السلطة الأبوية (الباترمونية) الشخصية، بدأ يُنظر إلى الزبائنية والرعاية على أنهما شرط لا غنى عنه للأنظمة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية)، فمن خلالهما تستطيع السلطة الأبوية (الباترمونية) اختراق الدولة والمجتمع، ومن ثم الحفاظ على سيطرتها الشخصية.

في صميم هيمنة الأسد الأبوية الجديدة (نيو باترمونية)، يقع دور النزعة الأبوية (الباترمونية) التي تعني ضمنًا إضفاء الطابع الشخصي على النظام وجهاز الدولة معًا. بُنيت هذه النزعة الأبوية (الباترمونية) عبر السيطرة الشخصية للأجهزة الأمنية، ورُسخت من خلال إغراء وجذب الدائرة الداخلية للنخب والمسؤولين الأمنيين الذين شكّلوا حاشية (شلّة) موالية حول الأسد، ومع بناء عبادة الأسد الشخصية، من خلال الطقوس الدينية، التي عُدّت دليلًا على الولاء للمعلّم (الباترون).

كان الدور الذي تلعبه علاقات الرعاية وشبكاتها هو الركن الثاني في نظام الأسد الأبوي الجديد (نيو باترموني). وتختلف علاقات الرعاية في أساليب عملها وبنيتها، على الرغم من ارتباطها الوثيق بالزبائنية. إن علاقة الرعاية هي علاقة عمودية، حيث يجلس المعلّم على قمة السلسلة، وهي تنطبق على السياسات العليا التي تستهدف فئة اجتماعية. وقد تحققت علاقات وشبكات الرعاية في نظام الأسد الأبوي الجديد (نيو باترموني) من خلال علاقات الرعاية العلوية، ورعاية حزب البعث.

(2) - غونثر روث وكوس ويتيخ (تحرير)، ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع؛ مخطط علم الاجتماع التفسيري. (بيركلي، كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأميركية: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1978).

(3) - صموئيل إيزنشتات، الأبوية التقليدية والأبوية الجديدة الحديثة. (لندن: منشورات سيج، 1973)

(4) - بيتر باولكا، الحكم والتنمية في الشرق الأوسط: مصر. (هايدلبرغ: سي إف مولر: 1985)

(5) - جان فرانسوا ميدارد، «الأبوية، والأبوية الجديدة ودراسة الدولة ما بعد الاستعمار في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى»، دراسات التنمية الدولية، العدد 17 (1996): ص. ص 76-97.

(6) - مايكل براتون ونيكولاس فان دي والي. التجارب الديمقراطية في أفريقيا: انتقالات النظام من منظور مقارن. (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، 1997).

(7) - جيرو إردمان وأولف إنجل. «إعادة النظر في الأبوية الجديدة: أبعد من مفهوم شامل». ورقة عمل GIGA، العدد 16 (2006)،

(8) - دانيال باخ. «الأبوية والأبوية الجديدة: مسارات وقراءات مقارنة»، الكومنولث والسياسة المقارنة، 49، العدد 3 (2011): ص. ص 275-294.

ومن ناحية أخرى، فإن الزبائنية، التي تمثل الركن الثالث لنظام الأسد الأبوي الجديد (نيو باترموني)، تعني ضمنًا وجود علاقة ثنائية بين الفرد الذي هو العميل/ الزبون في هذه الحالة، والمعلّم الذي هو الحاكم. وبذلك، فإن هذه العلاقة تكون أفقية، عند المقارنة مع البنية العمودية لعلاقات الرعاية. وهي أيضًا علاقة مفتوحة وعابرة تنطبق على كل فرد من المجتمع. ولذلك، فأن يصبح الفرد زبونًا أمرٌ محتمل لكل فردٍ يمكن أن يكون بدوره معلّمًا لأفراد آخرين. وعلى النقيض من ذلك، يبدو أن علاقات الرعاية أضيق، وتتمتع بها مجموعة اجتماعية أو سياسية واحدة. إن الزبائنية في الحالة السورية موجودة جنبًا إلى جنب مع علاقات الرعاية. ومع ذلك، تجلت أكثر في المجال الاقتصادي الذي نُظّم من خلال الزبائنية، على الأقل في عهد حافظ الأسد.

نقص التصورات المفاهيمية الأخرى

طُبّقت كثير من التصورات المفاهيمية، والأطر النظرية، لتحليل نظام الأسد. وبالتوافق على دور النزعة الشخصية للأسد، والجانب الاستبدادي للنظام، فقد عرض الباحثون مقاربات مختلفة، إما إعطاء الأولويات لدور أحد مكونات النظام، وإما تقويضه. وركّز البعض على دور حزب البعث، والجانب الشعبوي للنظام، وألقى آخرون الضوء على دور الطائفة العلوية، والسياسة الطائفية، في توطيد دعائم نظام الأسد.

نيكولاس فان دام، وهو أحد الباحثين المعروفين بدراساته عن النظام السوري، وقد أعطى الأولوية لدور الطائفة العلوية، يجادل في كتابه الشهير **(الصراع على السلطة في سورية)** بأن نظام الأسد واقع تحت "حكم البعث الذي يسيطر عليه العلويون" [9]. وهناك وجهة نظر متطابقة تقريبًا، يتبناها ويروّج لها إيال زيسر، الذي يزعم أن نظام الأسد يتّسم بطابع طائفي واضح، ويعتمد على دعم الطائفة العلوية [10]، وهي الطبيعة التي يزعم زيسر أنها السبب وراء نجاح الأنظمة وبقائها. ومع ذلك، قال زيسر نفسه في وقت لاحق إن أحد العوامل الرئيسة لنجاح الأسد في حكم سورية هو تشكيل الائتلاف الحاكم، الذي يزعم أن نظام الأسد [حافظ] في ظلّه "عبّر بنجاح عن ائتلاف من القوى الاجتماعية والسياسية التي مثّلت أغلب المجتمع السوري" [11]. حتى فان دام يبدو وكأنه يراجع هذا الادعاء، في ما يتصل بالهيمنة العلوية، في كتابه الذي صدر لاحقًا [12]، بحجة أن هناك تداخلًا بين الخلفية الطائفية والاجتماعية قد يؤثر في فهْم أن نظام الأسد كان يضع الأولويات لصالح الطائفة العلوية، ويجنّد بشكل مكثف منها.

يرى **ريموند هينبوش**، الباحث المعروف في الدراسات السورية، أن المفهوم المفتاحي الذي يقدّم نظرة ثاقبة وأكثر ملاءمة لصعود دور البعث واستمراريته وطبيعته هو الشعبوية الاستبدادية [13]. ومع ذلك، يبدو أن تصنيف النظام السوري بأنه "استبدادي شعبوي" يقوّض عوامل أخرى، مثل التمثيل المفرط للطائفة العلوية في الأجهزة الأمنية في ظلّ النظام السوري. ويبدو أن هينبوش قد أهمل حكم الأقلية في ترسيخ نظام الأسد (الطائفة العلوية في سورية)، إذ لا تتناول حجته النقطة التي مفادها أن الطبقة المهيمنة المتمثلة بالطائفة العلوية، التي سعى نظام ما بعد عام 1963 في سورية لإقامة سلطة معها، هي سلطة مستقلة عن الطبقة السنيّة التي كانت مهيمنة من قبل، والتي تشكل غالبية السكان السوريين. وهذا يعني أن نظام البعث، طوعًا أو بغير ذلك، أطلق مواجهة صامتة ضد النخبة السياسية السنّية المهيمنة، التي كانت توجد بشكل أساسي في المدن السورية الرئيسة. وكما يجادل رضوان زيادة، "[بعد عام 1966]، كان هذا هو الفصل الذي

(9) - نيكولاس فان دام، الصراع على السلطة في سورية. (لندن: آي بي توريس، 2011).

(10) - إيال زيسر، إرث الأسد: سورية في مرحلة انتقالية (لندن: سي هيرست وشركاه، 2001)

(11) - إيال زيسر، ضم سورية: بشار الأسد والأعوام الأولى في السلطة (لندن: آي بي توريس وشركاه المحدودة، 2007) ص. 9.

(12) - نيكولاس فان دام، تدمير أمة/ وطن، الحرب الأهلية في سورية (لندن: آي بي توريس، 2017).

(13) - ريموند هينبوش، السلطة الاستبدادية وتشكيل الدولة في سورية البعثية (بولدر: مطبعة وستفيو، 1990)، ص. ص. 1-2.

سيطر فيه الريف على المدينة، والأقلية على خليط هشّ بين الأغلبية والأقليات" [14]. نتج عن هذا التحول في النخبة الحاكمة في سورية ديناميكيات اجتماعية ذات طابع طائفي، بدأت تظهر في المجتمع السوري على شكل مزيد من الانقسام والتصادم الاجتماعيين. وفضلًا عن ذلك، يفترض التصنيف الشعبوي الاستبدادي أن هدف النظام هو إقامة دولة مستقلة قوية، لكنه لا يعالج الدافع الشخصي وراء توطيد الدولة وأجهزتها. وفضلًا عن ذلك، تراجعت هذه السياسات الشعبوية بعد استيلاء بشار على السلطة في عام 2000، حيث أطلق بشار حملة لتحرير (لبرلة) الاقتصاد، وتبني سياسة تقوم على اقتصاد سوق أكثر انفتاحًا [15].

بالإشارة إلى تصور ستيف هايدمان المفهومي لـ "ترقية الاستبداد" [16]، توسّع هينبوش في تفصيل التغيير في النظام الاستبدادي زاعمًا أن "التغيير العميق الأساسي كان عبارة عن حركة انتقال، من شكل شعبي من أشكال الاستبداد، إلى ما بعد الشعبوية" (صيغ الليبرالية الجديدة)، ويعرّف هينبوش ما بعد الشعبوية بأنه تحول إستراتيجي في الاقتصاد السياسي للأنظمة نحو ضمّ أصحاب رؤوس أموال المحسوبية (crony) [***] الجدد، واستبعاد "الدوائر الشعبية السابقة" [17]. ويطبّق هينبوش فكرة ترقي الاستبداد في سورية أثناء عهد بشار، من خلال ما يسميه بالاستبداد ما بعد الشعبوي [18].

على الرغم من أن هذه الحجج الخاصة بترقية الاستبداد، والاستبداد ما بعد الشعبوي، تعالج التغييرات في نظام الأسد، وحالات أخرى مماثلة، فإنها تركّز على العوامل السياسية والاقتصادية، والعوامل الخارجية القابعة وراء هذه التغييرات، ويبدو أنها تقوّض البعد ذاتي الدافع للسيطرة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية). بعد إضفاء الطابع الأبوي (الباترموني) على المجالات السياسية والاجتماعية، تستمر الهيمنة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) في التوسع، من خلال تعميق قوّتها وسلطتها الأبوية (باترمونية) عموديًا، ونشر سيطرتها أفقيًا عبر زبائنها. وبذلك، لا ينبغي أن نتوقع أن الهيمنة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) يجب أن توقف توسّعها، وتمتنع عن اختراق المجتمع الاقتصادي. وإن إضفاء الطابع الأبوي (باترموني) على المجتمع الاقتصادي سيكون أمرًا مطلوبًا من زبائن المعلّم (الباترون) أيضًا، الذين سيبحثون عن مصادر جديدة للإيرادات من خلال تحرير (لبرلة) الاقتصاد والقطاع العام الاقتصادي.

---

(14) - رضوان زيادة، السلطة والسياسة في سورية. (نيويورك: آي بي توريس 2011)، ص. 12.

(15) - محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية، جدلية الجمود والإصلاح (بيروت: المركز العربي للبحوث ودراسات السياسات، 2012)، ص. ص. 58-59.

(16) - ستيفن هايدمان. دراسة تحليلية بعنوان «ترقية الاستبداد في العالم العربي»، منتدى صبان لسياسة الشرق الأوسط، معهد بروكينغز، العدد 39 (2007).

(17) - ريموند هينبوش، «المرونة الاستبدادية والانتفاضة العربية: سورية من منظور مقارن» دراسات الشرق الأوسط، المجلد 7، العدد 1، (يوليو 2015): ص. 19.

(18) - المصدر السابق، ص. 26

[***] - المحسوبية Cronyism هي ممارسة التحيز في منح الوظائف والمزايا الأخرى للأصدقاء أو الزملاء الموثوق بهم، خاصة في السياسة وبين السياسيين والمنظمات الداعمة. ويظهر ذلك من خلال تعيين المتقاعدين السياسيين في المناصب، من دون النظر إلى مؤهلاتهم، ومنح العقود بشكل تفضيلي، أو عقد اتفاقيات تجارية مع الأصدقاء والشركاء الشخصيين.

ومن ناحية أخرى، ذهب بعض الأكاديميين إلى أبعد من ذلك، إذ قالوا إن النظام السوري، في ظلّ حافظ الأسد في المقام الأول، قد قدّم مثالًا للنظام السلطاني [19]، غير أن دراسة خصائص النظام السوري تكشف أنه فشل في أن يمثل نظامًا سلطانيًا بالكامل، على الرغم من سماته السلطانية، مثل النزعة الشخصية (personalism).

وقد اعترف هينبوش بتعقيد النظام السوري، وجادل بأنه "في الحالة السورية، عادة ما تكون النتيجة غامضة"، مضيفًا أنه "على الرغم من تحقيق شرعية أيديولوجية معينة، فإن الفشل في إنشاء مركز متماسك قاده إلى اللجوء إلى تقنيات أبوية (باترمونية) أسفرت عن الملكية الرئاسية [الجملكية] التي تتقاسم السلطة مع النخب العسكرية والبيروقراطية والمؤسسات الحزبية" [20]. ويبدو أن السمة الأبوية (الباترمونية) التي يتمتع بها النظام السوري قد أجبرت هينبوش نفسه على تسمية النظام، في وقت لاحق، بأنه "بيروقراطي جزئيًا، وأبويّ (باترموني) جزئيًا: نظام ملكي رئاسي فعلي" [21]. ويجادل **فولكر بيرثيس** أيضًا، في كتابه "الاقتصاد السياسي في سورية تحت حكم الأسد"، بأن "الدور الشخصي للأسد قد أُمِّن عن طريق الاستخدام المتعمد لصكوك أبوية (باترمونية) مثل الولاء الشخصي والرعاية". ويشدّد أيضًا على دور الشبكات الزبائنية [22].

النظام المختلط، الذي يزعم هينبوش وبيرثيس أنه هو الحال في سورية، هو تقريبًا النظام نفسه الذي زعم إردمان وإنغل أنه موجود في النظام الأبوي الجديد (نيو باتريموني) الذي تتعايش فيه الهيمنة الأبوية (الباترمونية) مع الهيمنة البيروقراطية [23].

ومن هنا، يمكننا أن نجادل بأن السمة الأبوية (الباترمونية) للنظام السوري حاضرة منذ بداياته المبكرة. ومع ذلك، فهي ليست حالة من حالات الأبوية (الباترمونية) الخالصة، بل هي حالة من حالات الأبوية الجديدة (نيو باترمونية).

(19) - آلان سياروف، مقارنة الأنظمة السياسية، مقدمة موضوعية في السياسة المقارنة، (كندا: مطبعة برودفيو، 2005)، ص. 215.

(20) - ريموند هينبوش، السلطة الاستبدادية وتشكيل الدولة في سورية البعثية (بولدر: مطبعة وستفيو، 1990)، القسم 12.

(21) - ريموند هينبوش، الثورة السورية من الأعلى، (أكسفورد: روتلدج، 2001)، الفصل الخامس

(22) - المصدر السابق، ص. 180.

(23) - إردمان وإنغل، «مراجعة الأبوية الجديدة: أكثر من مفهوم شمولي»

الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) لنظام الأسد

تقوم الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) للنظام السوري على ثلاث ركائز، تميز النظام في عهدي حافظ وبشار الأسد: **النزعة الشخصية** (الشخصنة) للنظام، من خلال دور زمرة الأسد وعبادة الأسد؛ دور **علاقات الرعاية**، من خلال رعاية العلويين، ورعاية حزب البعث؛ دور **العلاقات الزبائنية**.

إضفاء الطابع الشخصي على (شخصنة) النظام السوري: سورية الأسد

تكمن شخصنة النظام وأجهزة الدولة في مركز الأنظمة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية)، حيث تتمركز حولها آليات السيطرة الأخرى التي يستخدمها المعلّم لاختراق بيروقراطية الدولة، من خلال علاقات الرعاية والزبائنية. ومن خلال الشخصنة، تتطور الهيمنة. ويجادل فيبر بأن "الإدارة والقوة العسكريتين هما أداة شخصية بحتة للسيد (Master)" [24].

هذه العملية البناءة للسلطة الأبوية (باترمونية) المشخصنة مستمرة منذ أن استولى حافظ على السلطة، واستمرت في عهد نجله بشار. إنها عملية معقدة تلعب فيها كثير من العوامل الاجتماعية والسياسية دورًا، ومع ذلك يمكننا تحديد آليتين رئيستين استُخدمتا في ترسيخ وتجسيد السلطة في شخصية الأسد المعلّم/الباترون: حاشية الأسد؛ عبادة الأسد.

استطاع حافظ الأسد السيطرة على الأجهزة الأمنية، ومن ثم السيطرة على الدولة بالكامل، وربطها بشخصيته من خلال حاشية الموالين له. وقد ضُمِن إحكام الرقابة على الدولة من خلال القمع المشدد، والرقابة المطلقة، وأجواء الخوف التي كفلتها القبضة الحديدية للزمرة المسيطرة على جهاز الأمن. سارت هذه السيطرة المشخصنة المحكمة على الدولة، بالتوازي مع بناء عبادة الأسد. باستخدام الرمزية (symbolism) السياسية [**وهي أداة أدبية تستخدم الرموز، سواء كانت كلمات، أو أشخاصًا، أو علامات، أو مواقع، أو أفكارًا مجردة لتمثيل شيء يتجاوز المعنى الحرفي، أما الرمزية السياسية فهي تبحث في كيفية تأثير الرموز على الميول والهويات والسلوك السياسي. وبذلك فهي تتقاطع مع كثير من مجالات البحث في العلوم السياسية، من ضمنها القومية، والشرعية المؤسسية، والولاء السياسي، والحركات الاجتماعية، والسلوك الانتخابي، وهي سمة لا مفرّ منها في الحياة السياسية**] في ظلّ دائرة الخوف، تهدف العبادة السياسية إلى بناء علاقة عاطفية بين المعلم وأتباعه. وتستمر هذه الآليات أيضًا في ظلّ حكم نجله بشار. إن القوة الأبوية الموروثة (باترمونية) المشخصنة في سورية، والتي بُنيت من خلال سيطرة مشخصنة مشددة على أجهزة الدولة التي تنشر الخوف وتبني العبادة السياسية، أدّت إلى تسمية سورية "سوريا الأسد" [25].

(24) - غونثر روث وكوس ويتيخ (تحرير)، ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع؛ مخطط علم الاجتماع التفسيري. (بيركلي، كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأميركية: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1978).

(25) - سورية الأسد، مصطلح يستخدم على نطاق واسع من قبل الموالين للأسد وتبنته وسائل الإعلام الموالية. المصطلح يربط سورية بعائلة الأسد، مما يدل على الطبيعة الأبوية وحتى التي يمكن القول إنها الطبيعة السلطانية في سورية في ظل نظام الأسد.

حاشية الأسد

يكمن دور هذه الزمرة في صميم جهود حافظ الأسد لترسيخ سلطته الشخصية الأبوية (باترمونية). هذه الزمرة عبارة عن مجموعة مغلقة من المسؤولين، لا يُشك في ولائهم وطاعتهم العمياء للأسد المعلّم. كان أعضاء الزمرة، الخاضعون مباشرة للأسد، مسؤولين عن إحكام السيطرة على جهاز الدولة، ولا سيّما الأجهزة الأمنية والجيش، وبذلك حافظوا على سيطرة الأسد الشخصية.

عمومًا، يمكن المجادلة بأن هذه الزمرة، التي تشكّل الدائرة الداخلية للنخبة الحاكمة، والتي يُعدّ فيها الولاء للمعلّم شرطًا مميزًا لا غنى عنه لأعضائها، كانت تتألف أساسًا من ثلاث فئات: **أفراد عائلة الأسد و أقاربهم** الذين تربطهم علاقة قرابة مع الأسد؛ **النخب الأمنية والعسكرية الموالية**، وكثير منهم من الطوائف الشريكة (co-sects) أو الأصدقاء القدامى للأسد؛ **البيروقراطيين ورجال الدولة المخلصين من أعضاء حزب البعث**. يمكن عدّ هذه الفئات الثلاث على أنها مكونة للطبقات الهرمية أيضًا.

الفئة الأولى من أعضاء الزمرة هي أفراد العائلة، الذين يعتمد ارتباطهم بالمعلم على علاقات القرابة. تتمثل إحدى العلامات المبكرة للدور المتزايد لعلاقات القرابة في النظام السوري، في الدور الملحوظ الذي لعبه رفعت الأسد، شقيق حافظ الأسد الأصغر، في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. كان رفعت قائدًا لسرايا الدفاع، الحرس البرايتوري (praetorian) الذي لعب دورًا كبيرًا في قمع التمرد الإسلامي 1982-1979. ومن الأمثلة الأخرى، عدنان الأسد الذي سيطر على "سرايا الصراع"، والجنرال عدنان مخلوف، ابن أخي والدة بشار (أنيسة مخلوف) الذي قاد الحرس الجمهوري القوي والمُجهّز تجهيزًا جيدًا [26].

إن إعطاء الأولوية للعلاقة القائمة على القرابة يتقاطع مع سياسة التوريث (inheritance)، حيث تنتقل من خلالها السلطة الأبوية (باترومونية) من الأب إلى الابن. في التسعينيات، مع تفاقم مرض حافظ الأسد، مُهّد الطريق لابنه الكبير باسل. ومع ذلك، توفي باسل في حادث سيارة عام 1994، وهذا مهّد الطريق لأخيه الأصغر بشار. ولا يقف الأمر عند باسل وبشار فحسب، بل قد يصل إلى ماهر أيضًا، نجل حافظ الثالث، الذي يلعب دورًا مهمًا في الجيش، لا سيما في قيادة لواء النخبة الخامس في الجيش السوري.

استمر هذا الدور للفئة الأولى، أعضاء الزمرة في عهد بشار. وإضافة إلى ذلك، يمكن القول إن دور العائلة وعلاقات القرابة في تشكيل هذه الزمرة/ الشلّة قد ازداد في عهد بشار. يشغل كثير من أقارب بشار خارج عائلته المباشرة مناصب مهمة في النظام. بالإضافة إلى شقيقه ماهر الذي قيل عنه إنه يلعب دورًا مهمًا في الجيش، وخاصة بصفته قائدًا للحرس الجمهوري والفرقة الرابعة المدرعة في الجيش، احتل آصف شوكت (صهر بشار/ زوج أخته بشرى) مناصب مهمة مثل رئيس المخابرات العسكرية، ونائب رئيس الأركان، ونائب

(26) - غاري غامبيل. نشرة استخبارات الشرق الأوسط، «عائلة الأسد والخلافة في سورية».
https://www.meforum.org/meib/articles/0007_s2.htm
. (تم الوصول إليها في ا أيار/ مايو 2018)

وزير الدفاع حتى وفاته الغامضة. وهناك مثال بارز آخر، هو عاطف نجيب (ابن خالة بشار) الذي كان رئيس فرع الأمن السياسي في درعا، مهدِ الانتفاضة السورية، والذي يقال عنه إنه الشخص المسؤول عن اندلاع الانتفاضة، من خلال تعامله المتهور والأرعن مع الأزمة في مراحلها الأولى. ولم يقتصر دور الأقارب في حكم بشار على المجالين البيروقراطي والأمني فحسب، بل امتد أيضًا إلى المجال الاقتصادي، كما يتضح من الدور المهم لرامي مخلوف (ابن خال بشار).

الفئة الثانية في تراتبية عضوية الزمرة هي النخب الأمنية الموالية والجيش. على الرغم من أن الأفراد العلويين كانوا ممثلين تمثيلًا زائدًا في هذه المجموعة، فقد حجز كثير من السنّة مقاعدهم في هذه الزمرة أيضًا. من ضمن هذه الفئة، يمكن تسمية محمد الخولي، رئيس المخابرات الجوية 1970-1987، وقائد القوات الجوية 1994-1999، وعلي دوبا، رئيس المخابرات العسكرية 1974-2000، وكلاهما من العلويين. ويوجد أعضاء من غير العلويين مثل مصطفى طلاس، وزير دفاع الأسد الوحيد، وناجي جميل، وهو سنّي من دير الزور، وتولى قيادة القوات الجوية السورية من تشرين الثاني/ نوفمبر 1970 حتى آذار/ مارس 1978، وحكمت الشهابي، رئيس أركان الأسد. ومع ذلك، من المهم أن نذكر هنا أن "ضباطًا مثل طلاس وجميل [ناجي جميل] وشكور [اللواء يوسف شكور، وهو مسيحي أرثوذكسي، خلف مصطفى طلاس بصفة رئيس للأركان في عام 1972] كانوا قادرين على ممارسة سلطة كبيرة، ما داموا ينفذون سياسات الرئيس" [27].

الفئة الثالثة من الزمرة كانت تتألف من البيروقراطيين (الموظفين)، أو واجهة النظام. هنا، كان تمثيل المسؤولين السنة أكثر. ولنتذكر بعض الأسماء مثل عبد الحليم خدام، نائب الرئيس السابق، وفاروق الشرع، وزير الخارجية السابق ونائب الرئيس، وعبد الله الأحمر، الأمين العام المساعد للحزب، ومساعد حافظ الأسد، ويمكن أن نضيف إلى هذه الفئة أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث، وجميع رؤساء الوزراء السوريين في عهد حافظ وبشار، الذين كانوا جميعًا من السنة. ومع ذلك، فإن قوة هذه الفئة ووزنها في الزمرة منخفضة نسبيًا، وذلك ببساطة لأن قوتها تعتمد فقط على موافقة المعلم (باترون)، وتفتقر إلى أي قاعدة قوة، على عكس أعضاء الفئة الثانية، الذين هم بدورهم أدنى مرتبة من أعضاء الفئة الأولى، لكنهم مُنحوا الأولوية بسبب علاقات القرابة مع المعلّم، واستحواذهم المباشر على السلطة.

أظهرت الزمرة الاستمراريةَ، إذ لم يتغير هيكل سلطة النظام (خاصة خلال الثلاثين عامًا من حكم حافظ) إلى حدّ بعيد. تعني هذه الاستمرارية أن هذه الزمرة ظلّت أيضًا موالية للمعلم. في عهد حافظ، وبصرف النظر عن محاولة الانقلاب التي قام بها رفعت، يبدو أن الزمرة حافظت على بنيتها. واستمرت في العمل خلال أعوام بشار الأولى، ويقول زيسر إن "النخبة في عهد الأسد [عهد حافظ الأسد] ظلّت في مكانها خلال الأعوام الأولى من حكم بشار [28]، وزُعم أن الزمرة لعبت دورًا مهمًا في ضمان الانتقال السلس للسلطة.

تمكّن نظام الأسد من ضمان الطاعة العمياء والإخضاع الكامل لأجهزة الدولة للسلطة الأبوية (الباترومونية)، من خلال الزمرة التي تسيطر بشدة على الأجهزة الأمنية. فعلى سبيل المثال، رُوّض أفراد

(27) - نيكولاس فان دام، الصراع على السلطة في سورية، ص. 69.

(28) - إيال زيسر، ضم سورية: بشار الأسد والأعوام الأولى في السلطة، ص. 63.

الجيش والضباط العسكريون، في البداية بسبب عمليات التطهير التي جرت في الأعوام الأولى من حكم النظام، ثم بعد ذلك، عبر المراقبة الوثيقة للضباط من خلال إدارتي الاستخبارات العسكرية والاستخبارات الجوية اللتين كان يسيطر عليهما أفراد الزمرة الذين كانوا على صلة مباشرة بالمعلّم. وهكذا، فإن الجيش، فضلًا عن الأجهزة الأمنية، قد آلَ إلى شكلٍ مشخصن تمامًا مع ما كان فيبر قد أطلق عليه "القوات الأبوية/باترومونية". وبذلك، فإنه لم يبدِ أيّ تردد في قمع أيّ انتفاضة تواجه النظام الأبوي (باترموني)، سواء في حالة الإخوان المسلمين أم في انتفاضة عام 2011.

عبادة شخصية الأسد

الآلية الرئيسة الثانية في تأمين شخصنة النظام السوري في شخصية الأسد هي بناء عبادة الأسد السياسية. في حين أن دور الزمرة يقتصر على ضمان السيطرة المشخصنة المشددة، والإشراف على جهاز الدولة بقبضة من حديد تنشر مناخًا من الخوف، فقد استُغلّت العبادة السياسية في بناء شخصية الأسد بصفته معلم/ باترون الدولة في المجال العام، ومجال مثلنة المفاهيم.

في عملية بناء صورة الأسد كمعلم/ راعٍ للدولة، استُخدِمت أدوات اجتماعية وسياسية مختلفة، فقد أغرِقت وسائل الإعلام، والمجال العام الخاضع للسيطرة، بخطابات رسمية وشبه رسمية، ورموز سياسية، ورسائل عامة، في حملة مستمرة ترعاها الدولة بهدف تجسيد الأسد المعلم/ الراعي في رأي عامة الناس.

إن سياسة الرمزية (symbolism) واحدة من الأبعاد الثلاثة لإستراتيجيات الحاكم لإضفاء الشرعية على الأنظمة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية)، وفقًا لـ بانك وريختر. في ورقتهم، يعرّفون سياسة الرمزية بأنها تنظر إلى "الجوانب غير المادية للثقافة والهوية والخطاب" وتدرسها، مضيفين أنها "بهذه الطريقة، تضيف جوانب جديدة إلى فئات الكاريزما (الفيبرية) الكلاسيكية، والتقاليد التي أُدرجت بالفعل -ولو جزئيًا على الأقل- في الفهم التقليدي السابق للأبوية الجديدة (نيو باترمونية)" [29]. كانت ليزا ويدين واحدة من أفضل الأكاديميين النادرين الذين تناولوا دور العبادة والرمزية السياسية في توطيد سلطة الأسد في سورية، حيث تزعم، في كتابها (**أوجه غموض الهيمنة: السياسة والخطابة والرموز في سورية المعاصرة**)، أن "عبادة الأسد إستراتيجية للهيمنة قائمة على الامتثال وليس على الشرعية" [30].

كان بناء عبادة الأسد عملية طويلة ومتراكمة، وبدأت منذ الأعوام الأولى لاستيلاء حافظ الأسد على السلطة. يدّعي باتريك سيل، كاتب سيرة الأسد، أن مخترع عبادة الأسد هو أحمد إسكندر أحمد، وزير إعلام الأسد في فترة 1974-1983 [31]. ومع ذلك، استشهدت ويدين بأن يحيى سادوسكي يجادل بأن "التبجيل المبالغ فيه لحافظ الأسد بدأ داخل حدود المنظمات الشعبية، كجزء من تمجيد الحزب الشامل للإنجازات البعثية، وأصبح جزءًا من إستراتيجية لحشد الدعم الجماهيري ابتداءً من عام 1982" [32]. وبحلول التسعينيات، ظهرت عبادة الأسد بوضوح، إذ نُشرت عشرات الأعمال في دمشق عن الرئيس السوري، وكلها عبارات مديح [33].

(29) - أندريه بانك وتوماس ريختر، «الأبوية الحديثة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، نظرة عامة، النقد والمفاهيم البديلة»، الأبوية الجديدة في مناطق العالم المختلفة»، ص. 8.

(30) - ليزا ويدين، أوجه غموض الهيمنة (شيكاغو: منشورات جامعة شيكاغو، 1999)، ص. 6.

(31) - باتريك سيل، أسد سورية، الصراع على الشرق الأوسط. (بيركلي، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1995)، ص. 339.

(32) - ليزا ويدين، أوجه غموض الهيمنة (شيكاغو: منشورات جامعة شيكاغو، 1999)، ص. 33.

(33) - فان دام، الصراع على السلطة في سورية، ص. 14.

نُصِب أول تمثال للأسد في دمشق في مكتبة الأسد عام 1984. وفي الأعوام التالية، كان من المقرر نصب تماثيل حافظ الأسد في مدخل كلّ مدينة سورية تقريبًا، وفي وسط الحدائق العامة، وفي الوقت نفسه، كان من المقرر تعليق صورته في كل فصل دراسي ومكتب عام، وفي كل زاوية شارع. كان من المقرر أن يصبح حافظ الأسد موجودًا في كل الأمكنة. بحلول منتصف الثمانينيات، بدأ حافظ الأسد في الإشارة إلى استخدام عبارات أبوية (باترمونية) متطرفة مثل؛ الأب القائد [34]، وسيد الوطن. ومن ضمن الألقاب الأخرى التي أُعطيت لحافظ الأسد؛ الرفيق القائد الرمز بطل الحرب والسلام. من المثير للاهتمام أن هذا الوجود الكلي الشامل استمّر حتى بعد وفاته عام 2000، فقد بدأت وسائل الإعلام الحكومية تسمّي حافظ الأسد بالقائد الخالد.

كان الدور الذي ذكره سادوسكي للتنظيمات الشعبية وحزب البعث في بناء العبادة حيويًا [35]. فقد استُخدِمت هذه المنظمات كقنوات لفرض الصورة الأبوية (الباترمونية) على الجمهور، وخاصة الطلاب، كما استُخدمت كأداة لتحقيق طقوس عبادة الأسد السياسية في المجال العام. كان دور القبضة الحديدية للأجهزة الأمنية التي تسيطر عليها الزمرة الأسدية هو تحقيق عبادة الأسد السياسية في المجال العام. هذه القبضة الحديدية أجبرت الناس إما على الإيمان بعبادة الأسد، وإما على عدم ممارستها. وصفت ويدين هذا الموقف بالقول إن الناس يتصرفون، و"كأن هذا أمرٌ غير ممكن". على سبيل المثال، نُقل موظفو الدولة بواسطة حافلات عامة إلى صناديق الاقتراع لتقديم البيعة [36] للأب القائد، وكل من يتردد أو يعارض سيخضع للتحقيق من الأجهزة الأمنية. ومنذ منتصف الثمانينيات، كان الشعار السياسي الذي سيطر على حملات إعادة انتخاب حافظ الأسد هو "إلى الأبد يا حافظ الأسد".

ومن المفاهيم المهمّة التي يمكن تسليط الضوء عليها في عملية بناء عبادة الأسد، أن هذه العبادة لم تقتصر على شخصيته فحسب، بل امتدت لتشمل أفرادًا آخرين من الأسرة. وسبق لويدين أن سلطت الضوء أيضًا على هذه الفكرة، حيث تقول إن "الأسد يشارك الأبطال الآخرين في المشهد الأيقوني (الرمزي). وكان يظهر أفراد عائلة الأسد، وعلى الأخص والدته، وابنه المتوفى باسل، وابنه بشار... دوريًا في العروض الرمزية للدولة" [37]. مهّد بناء العبادة السياسية لعائلة حافظ الأسد الطريق لبشار لتأسيس عبادته الخاصة، عندما انتقل إلى السلطة. بحلول عام 1996، أظهرت الصور والأزرار المزخرفة، وغيرها من المعدات، بشكل منتظم الأسد محاطًا من أبنائه. وفي بعض الأحيان، كان الثلاثة يرتدون ملابس عسكرية، ما يدل على أن الطبيب الشاب، مثل شقيقه الميت ووالده المسنّ، يرتدي البزة العسكرية المطلوبة [38]. وعلى هذا، فقد بدأت عملية بناء عبادة بشار حتى قبل أن يتولى السلطة.

---

(34) - ياسين الحاج صالح، الثورة المستحيلة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017)، ص. 75

(35) - سيناقش هذا الدور بالتفصيل في جزء رعاية حزب البعث.

(36) - البيعة في الأصل مصطلح إسلامي، يعني إعطاء يمين الولاء للقائد. ومع ذلك فقد تم استخدامه في سورية منذ منتصف الثمانينيات لوصف إعادة انتخاب الأسد للرئاسة.

(37) - ليزا ويدين، أوجه غموض الهيمنة، ص. 28.

(38) - المصدر السابق، ص. 61.

بعد تولي بشار السلطة، استمرت العبادة السياسية التقليدية في الحياة العامة. وعُرضت صورة الأسد، "عرين الأسود"، التي وُزّعت خلال مؤتمر قمة جامعة الدول العربية عام 2007 في الرياض. ولُصقت على نوافذ السيارات السورية كعلامة على الولاء، وكوسيلة للحصول على امتيازات مثل الإعفاء من غرامات المرور. وفي العام نفسه، خلال الاستفتاء التالي، نُفّذت حملة "منحبك"، وهي تشير إلى الولاء الأعمى، إذ تشبه بشكل أوثق الدعاية لحكم حافظ الأسد، تلك الحملة التي موّلتها الدائرة الوثيقة من رجال الأعمال، فقد أصبحوا رعاة اقتصاديين مخلصين لعائلة الأسد [39].

كانت العبادة السياسية في سورية، تحت حكم حافظ وبشار، عملية تُبنى اجتماعيًا تحت إشراف الدولة. وهكذا، أصبحت نوعًا من الطقوس الرسمية. الطلاب في زمن حافظ، من خلال طابورهم الصباحي، وبعد التحية للعلم الوطني، كانوا يرددون الشعار اليومي "بالروح بالدم نفديك يا حافظ". وفي زمن بشار، استُبدل حافظ ببشار، ولذلك، تغيّر الشعار وصار "بالروح بالدم نفديك يا بشار". إن هذه العبادة السياسية للأسد سوف تتجلى بعد انتفاضة عام 2011 من خلال السلوك الاستعبادي الغريب من جانب أنصار الأسد، مثل الشعار الموالي "الأسد أو نحرق البلد".

(39) - مالو هالاسا، وزاهر عمرين ونوارة محفوظ، (محرر)، سورية تتحدث، الفن والثقافة من خط المواجهة. (لندن: كتب الساقي، 2014).

سياسة الرعاية في سورية

الركيزة الثانية للسلطة الأبوية الجديدة في سورية هي دور علاقات وشبكات الرعاية، التي من خلالها تتغلغل القوة الأبوية (باترمونية) في الدولة والمجتمع، وبذلك تعزز هيمنتها. تؤسس علاقات الرعاية علاقة هرمية بحسب التعريف [40]، وتُنظَم وفق مقاييس عمودية، ما يميزها عن العلاقات الزبائنية الأفقية. ومن ثم، يمكننا أن نجادل في أن علاقات الرعاية هي خطوة متقدمة عن الزبائنية، إذ تُنظم فيها الشبكات بشكل هرمي، حيث يتربّع المعلم/ الراعي (الباترون) على قمة السلسلة. الاختلاف الآخر ذو الصلة هو أن علاقة الرعاية هي نوع من السياسة العليا التي تتعامل مع الفئات الاجتماعية، على عكس الزبائنية التي يمكن أن تقتصر على شخصين. لذلك، من أجل الحصول على علاقة رعاية، نحتاج إلى مجموعة اجتماعية موحدة من جهة، وراعٍ/ معلم من جهة أخرى، على عكس الزبائنية التي تشكّل علاقة بين فردين. ومع ذلك، تشكّل علاقات الرعاية نوعًا من العلاقة غير المتكافئة لصالح الراعي/ المعلم.

في حالة نظام الأسد، تجلّت علاقات الرعاية هذه في الرعاية العلوية ورعاية حزب البعث (Alawite Patronage and Baath Party Patronage)، حيث نُظّم كل منهما بطريقة تنازلية (من الأعلى إلى الأسفل)، حيث يتبوأ الراعي/ المعلّم المركز الأول. ومع ذلك، يمكن القول إن هدف نظام الأسد لم يكن تأسيس دولة عضوية، بل السيطرة على المجتمع، وتعبئته بطريقة تخدم هيمنته الأبوية الجديدة (نيو باترمونية).

(40) - فولكر بيرثيس، الاقتصاد السياسي لسورية تحت حكم الأسد، (نيو يور: آي بي توريس وشركاه المحدودة، 1995)، ص. 181.

الرعاية العلوية

اعتمد نظام الأسد على علاقات وشبكات الرعاية لترسيخ سلطته. وإحدى علاقتي الرعاية التي اعتمد عليها هي الرعاية العلوية. تاريخيًا، لعبت الطائفة العلوية دورًا رئيسًا في السياسة السورية، وخاصة بعد انقلاب آذار/ مارس 1963 الذي أوصل حزب البعث إلى السلطة. ما يزال دور العلويين في السياسة، وفي ظلّ نظام الأسد بشكل أساسي، موضع نقاش وتحليل متنازع عليه. وإن التعامل مع الطائفة العلوية بوصفها مجموعة متجانسة ينطوي على أخطار التعميم.

سيكون من غير الدقيق القول بأن حافظ الأسد هو الرجل الذي أدخل العلويين في السياسة، التي كان يسيطر عليها الجيش الذي كانت الأقليات ممثلة فيه تمثيلًا مفرطًا منذ استقلال الجمهورية السورية [41].

حتى قبل أن يستولي البعث على السلطة، كان تجنيد الجيش للطبقات الأكثر فقرًا، وكان نحو (65) في المئة من الضباط في الجيش من العلويين [42]. ويذكر حنا بطاطو أنه "منذ عام 1955، اكتشف العقيد عبد الحميد السراج، رئيس مكتب الاستخبارات العسكرية، مندهشًا أن ما لا يقل عن 55 في المئة أو نحو ذلك من الضباط ينتمون إلى الطائفة العلوية [43].

ليس من المستغرب أن يكون حافظ الأسد قد اعتمد على طوائف عدة في تشكيل زمرة الموالين له، التي عملت كدائرة داخلية للنظام. ولم تتوقف علاقات الراعي - العميل/ الزبون بين حافظ الأسد ودائرته المقربة من الموالين عند هذا المستوى، لكن علاقات وشبكات الرعاية هذه امتدت نزولًا إلى أسفل لتصبح القاعدة التي يجنّد فيها النظام المسؤولين الموالين وفقًا لذلك. وهكذا، اعتمد هؤلاء الموالون من الدائرة الداخلية بشكل عام أيضًا على طوائفهم. ويُعدّ رفعت الأسد (شقيق حافظ الأسد، وقائد سرايا الدفاع)، مثالًا واضحًا على ذلك، إذ قيل إن الحرس البرايتوري يهيمن عليه أعضاء علويون. قام محمد الخولي، أحد أفراد زمرة الأسد، بتوسيع علاقات الرعاية إلى أسفل، ويذكر سادوسكي أنه "بعد توليه السلطة، رُقّي العلويون لقيادة جميع إدارات وفروع المخابرات العسكرية، تحت إشراف دقيق لمحمد الخولي، وهو جنرال علوي" [44].

لم يصبح العلويون "أقلية مهيمنة"، ولم يصبح نظام الأسد طائفيًا بالكامل. وإذا افترضنا أن نظام الأسد كان نظامًا طائفيًا، فمن المهم الإشارة هنا إلى أن نظام الأسد كان حريصًا على عدم الارتباط بدور العلويين. من ناحية أخرى، كانت المسألة الطائفية من المحرمات في سورية، وقضية تؤدي إلى الاستجواب من الأجهزة

(41) - فيسيل كورت، «دور الجيش في السياسة السورية وانتفاضة 2011"، تركيا من الداخل، المجلد. 18/ عدد 2016/2، ص. ص 109 - 128

(42) - يحيى سادوسكي، «الرعاية والبعث: الفساد والسيطرة في سورية المعاصرة»، 444

(43) - حنا بطاطو، فلاحو سورية أبناء وجهائهم الريفيين الأقل شأنا وسياساتهم، (برينستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 1999)، ص. 157.

(44) - يحيى سادوسكي، «الرعاية والبعث: الفساد والسيطرة في سورية المعاصرة»، 444

الأمنية عند ذكرها. من ناحية أخرى، حرص الرئيسان السوريان حافظ وبشار على المشاركة في الصلاة الرئيسة في الجامع الأموي الكبير بدمشق، وعدم إبداء أي خلاف أو محاولة تمييز أنفسهم عن التدين السنّي الرسمي الرئيس.

ومع ذلك، في نهاية المطاف، أصبح العلويون مجموعة مميزة بكونهم العملاء المفضلين للراعي وعملائه المقربين. وهكذا، تحوّلت علاقات الرعاية إلى نوع من شبكة رعاية تعمل بشكل أساسي داخل الطائفة العلوية. على عكس شبكة الرعاية في ظل حزب البعث، التي ستُناقش لاحقًا بمزيد من التفصيل، اقتصرت شبكات الرعاية الناتجة عن الرعاية العلوية على أفراد المجتمع/ الطائفة العلوية فقط.

يمكن القول حقًا إن حافظ الأسد استخدم قاعدة القوة العلوية، ورتّبها حول شخصيته لتعزيز سلطته. ومع ذلك، من ناحية أخرى، فإن للطائفة العلوية أيضًا ديناميكيتها الداخلية، ودوافعها التي لا ينبغي إهمالها. كما يجادل غولدسميث باستخدام مفهوم العصبية عند ابن خلدون [45]، فإن الطائفة العلوية لديها عصبية خاصة بها. أدى التقاطع بين الدافع الشخصي لحافظ الأسد وديناميكيات الطائفة العلوية إلى هذا التحالف المصيري.

وفّرت شبكات الرعاية العلوية هذه لعملائها/ زبائنها امتيازات في مجالات عدة. ولم تعمل علاقات الرعاية داخل جهاز الدولة فحسب، بل أصبحت حاضرة في مجالات اجتماعية أخرى. ولم يبدأ العلويون في التمثيل المفرط في الجيش فحسب، بل في البيروقراطية (سلك الموظفين). ومن ثم "نشأت طبقة متوسطة علوية مع نمو الوظائف المدنية. وخلال العقد الماضي، كان أثر تجميد توظيف القطاع العام على المجتمع العلوي أقل من أي مجتمع آخر، لأن العلويين محميون من خلال نظام الرعاية السياسية" [46].

عززت علاقات الرعاية في ظلّ نظام الأسد العصبية العلوية، وساعدت الطائفة على التماسك. وبذلك أصبح نظام الأسد بُعدًا أساسيًا للهوية العلوية السورية، وأكسبها شعورًا بالانتماء. كلما انتشرت شبكات الرعاية بشكل أعمق داخل الطائفة العلوية، زاد شعورهم بالارتباط بنظام الأسد. في المقابل، نجح نظام الأسد في تعزيز سلطته الأبوية (الباترمونية)، مستخدمًا شبكة الرعاية العلوية لاختراق أجهزة الدولة، وفي مقدمتها الجيش وأفرع الأمن. وبذلك، تمكّن كل من حافظ وبشار الأسد من إحكام السيطرة على الجيش والدولة كليًا عبر استغلال وتعبئة الطائفة العلوية من خلال علاقات وشبكات الرعاية التي تُرتّب ترتيبًا هرميًا، بينما يجلس المعلم/ الراعي على رأس الهرم.

أصبحت الطائفة العلوية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بنظام الأسد، واستثمرت في بقائه بفضل علاقات الرعاية وشبكاتها. وقد أسهمت علاقات الرعاية هذه في ظهور عصبية العلويين جنبًا إلى جنب مع انعدام

(45) - كان هينبوش وعجمي قد أشاروا أيضًا، قبل غولدسميث، إلى دور العصبية في السياسة العلوية، انظر: ريموند هينبوش، «سورية تحت حكم البعث: الاقتصاد السياسي للاستبداد الشعبوي». الدولة والاقتصاد السياسي للإصلاح في سورية، (فايف، اسكتلندا: مركز جامعة سانت أندروز للدراسات السورية، 2009)، ص. ص 5-24. وفؤاد عجمي، التمرد السوري، (ستانفورد، كاليفورنيا: دار نشر هوفر)، ص 13.

(46) - فابريس بالانش، المجتمع العلوي والأزمة السورية. معهد الشرق الأوسط.
http://www.mei.edu/content/map/alawi-community-and-syria-crisis

الأمن وتوطيد الطائفة حول العائلة الأبوية، عائلة الأسد. استمر هذا الدور في عهد بشار، حتى إنه عيّن كلًّا من علي أصلان وعلي حبيب قائدي أركان، وكذلك عين علي أيوب وزير الدفاع، وقيل عنهم إنهم من الطائفة العلوية.

رعاية حزب البعث

بالإضافة إلى الرعاية العلوية، استخدم نظام الأسد رعاية حزب البعث، لتعزيز هيمنته الأبوية على الدولة والمجتمع في سورية. كانت شبكات الرعاية لحزب البعث حيوية في توسيع القاعدة الاجتماعية للنظام، والوصول إلى مختلف الشرائح الاجتماعية. وبذلك، فقد خسر حزب البعث في سورية، تحت حكم عائلة الأسد، مثاليته الأيديولوجية، وبدأ يلعب دورًا ذرائعيًا في أيدي السلطة الأبوية (الباترمونية). كان لحزب البعث وتنظيماته دور فعال جدًا في حشد الناس، وإيجاد الشرعية، وتمجيد المعلم/ الراعي من خلال ممارسة عبادة الأسد السياسية والاحتفاء بها. وساعدت علاقات وشبكات الرعاية، التي أُقيمت من خلال حزب البعث، السلطة الأبوية (الباترمونية) في اختراق البيروقراطية (طبقة الموظفين)، وتعبئة الشرائح الاجتماعية المختلفة، ومن ثم في زيادة حجم وتنويع أصحاب المصلحة في السلطة، وكل ذلك في مصلحة الأسد، المعلم/ الراعي. ويجادل ديفلين: "يمكن تقييم الأسد بحق على أنه الرجل الذي حوّل البعثية في سورية من حكم حزبي إلى دكتاتورية" [47].

أثناء عهد حافظ الأسد، تمتّع حزب البعث بالمكانة الرسمية المميزة في السياسة السورية. كفل الدستور السوري الامتيازات التالية: أن يكون حزب البعث هو الحزب القائد للدولة والمجتمع. وكان على حزب البعث قيادة الجبهة الوطنية التقدمية التي تضم أحزابًا أخرى. وهو الحزب الوحيد الذي يمكنه ممارسة الأنشطة السياسية في الجيش. هذا الموقع المميز حوّله إلى محرك حاسم، واستُخدم لرعاية حزب البعث. ومع ذلك، يلعب حزب البعث دورًا ضئيلًا في عمليات صنع القرار، واستُخدم أكثر كمانح للموافقة، من دون أدنى تفكير، على القرارات التي اتخذها الأسد ودائرته الداخلية. ومع ذلك، يبقى لاعبًا أساسيًا في تنظيم الناس، وتعبئة الجماهير، وإضفاء الشرعية على النظام [48]. من هذه النقطة، تلعب أيديولوجية القومية العربية دورًا.

من ناحية أخرى، توسّع جسد الحزب والمنظمات التابعة له أكثر فأكثر. يكشف الجسم الموسع والمتضخم لحزب البعث عن تمدد علاقات وشبكات الرعاية. بدأ حزب البعث بالتغلغل التنظيمي في كل الشرائح الاجتماعية، وفي كل ركن من أركان البلاد، لكن هذا التوسع في الأنشطة والعضوية لا يمثل نجاحًا في تجنيد مؤمنين جدد بأيديولوجية الحزب، إنما يشير إلى المجال المتزايد للانتهازية وعدد الانتهازيين. ومع ذلك، لا ينبغي إهمال دور العبادة السياسية والأجهزة الأمنية التي ترعاها الدولة في دفع الناس نحو الحزب.

تنحدر علاقات رعاية حزب البعث إلى أسفل، وتعمل لصالح المعلّم/ الراعي، وكذلك الزبون/ العميل. كانت علاقات الرعاية من خلال حزب البعث حيوية بالنسبة إلى الأسد للحفاظ على سيطرته السياسية

(47) - جون ديفلين. «حزب البعث: صعود وتحول.» المراجعة التاريخية الأميركية. المجلد. 96، العدد 5 (1991): 1396-1407، ص. 1406.

(48) - وكالة المخابرات المركزية، سورية من دون الأسد: سياسة الخلافة (قسم الشرق الأوسط، مكتب التحليل السياسي الإقليمي، وكالة المخابرات المركزية، 1978) تمت الموافقة على إصدارها في 25 أيار/ مايو 2006. ص. 13

والاجتماعية، وتعبئة الناس حول عبادته، وتوليد الدعم العام، وتأكيد شرعيته. من ناحية أخرى، فإن العضوية في حزب البعث كانت ميزة للزبون/ العميل الذي يسعى للوصول إلى السلطة، أو الارتقاء الاجتماعي، أو البيروقراطي، أو السياسي. وتشمل علاقات الرعاية هذه جميع المراتب الحزبية، من اتحاد الفلاحين في الريف، إلى اللجنة المركزية للحزب. طوّر رجال مثل عبد الله الأحمر، وهو ابن عامل بناء فقير، وأصبح أعلى مسؤول في حزب البعث بعد الأسد، شبكة حيوية من الزبائن/ العملاء في مجتمع رجال الأعمال (البزنس) [49].

أُقيمت علاقات وشبكات الرعاية على الأرض من خلال المنظمات السياسية والاجتماعية لحزب البعث. على سبيل المثال، من أجل تحقيق هدف رعاية السياسة السورية من خلال الحزب، أنشأ الأسد الجبهة الوطنية التقدمية، وهي ائتلاف أحزاب يسيطر عليه حزب البعث. ومع ذلك، لم يُسمح لتلك الأحزاب بالنشاط وإدخال أعضاء جدد بين صفوف القوات المسلحة أو المدارس [50]، بينما كان حزب البعث هو الوحيد القادر على القيام بذلك.

في المجال العام والاجتماعي، كان دور التنظيمات الشعبية (المنظمات الشعبية) حيويًا. فهذه المنظمات نظمت كل شريحة اجتماعية واستهدفتها، مثل تلاميذ المدارس، وطلاب الجامعات، والنساء، والعمال، والفلاحين، وما إلى ذلك. في نهاية المطاف، صار لحزب البعث وتنظيمه وجود في كل المجالات الاجتماعية: الاتحاد العام للفلاحين؛ الاتحاد العام لنساء سورية؛ الاتحاد العام لنقابات العمال؛ الاتحاد العام لنقابات الحرفيين؛ اتحاد الكتاب العرب؛ منظمة طلائع البعث التي استهدفت التلاميذ بين الأعمار من (6 12-) عامًا؛ اتحاد شبيبة الثورة الذي استهدف الطلاب من (13 إلى 18) عامًا؛ الاتحاد الوطني لطلبة سورية [51]. لهذا السبب، "عزز [الأسد] التنظيمات التي يسيطر عليها الحزب، فهذه المنظمات ساعدت بدورها في حشد الدعم لنظام الأسد بين الفلاحين والعمال والطلاب والنساء والشباب والمجموعات الخاصة الأخرى داخل المجتمع السوري" [52].

ومن الجدير بالذكر القول إن هذه التنظيمات يمكن أن تُنظَم وتعمل داخل أجهزة الدولة. كانت عملية التنظيم تتم برعاية الدولة، وكان لأعضائها تأثير على القبول والتعيين الأكاديمي والمنح الدراسية وما إلى ذلك. حتى في الريف، كان لاتحادات الفلاحين تأثير على تخصيص القروض والائتمانات. ويشير بيرثيس إلى "التنظيم الموازي للهيكل الإداري للدولة والقطاع العام، فإن المستويات الحزبية المختلفة تمارس ما يُشار إليه باسم (السيطرة الشعبية) على بنية البيروقراطية المعنية" [53].

(49) - يحيى سادوسكي، «الرعاية والبعث: الفساد والسيطرة في سورية المعاصرة.»، ص. 449.

(50) - تشارلز باترسون، حافظ الأسد سورية، (منشورات جامعة إلينوي،1991)، ص. 59.

(51) - لمزيد من المعلومات التفصيلية حول تلك التنظيمات انظر؛ جاد الكريم الجباعي، 2013. «البنية التسلطية للنظام السوري، النشأة والتطور والمآل»، خلفيات الثورة، دراسات سورية، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص. ص 189 - 242.

(52) - تشارلز باترسون، حافظ الأسد سورية، (منشورات جامعة إلينوي،1991)، ص. 58.

(53) - فولكر بيرثيس، الاقتصاد السياسي لسورية في عهد السد، ص. 158.

وسّعت شبكات الرعاية هذه القاعدة الحاكمة، وزادت من أصحاب المصلحة مع النظام. انضمت شرائح اجتماعية جديدة، وبخاصة من الريف، إلى النظام، وبدأت تستفيد من الانتهازية الممنهجة. ومن ناحية أخرى، وسّعت السلطة الأبوية (الباترمونية) دائرة السيطرة الخاصة بها. وفي نهاية المطاف، تمكّنت من اختراق المجال البيروقراطي (الوظائفي)، ومن اختراق الحياة الاجتماعية أيضًا.

تراجع هذا الدور لحزب البعث وعلاقات الرعاية في ظلّ حكم بشار. وشهد عهد بشار تضاؤلًا في دور العروبة كأيديولوجيا في السياسة الإقليمية، خاصة بعد إطاحة البعث العراقي عام 2003، ومع تحالف سورية مع إيران تحت ما يسمى محور المقاومة. وداخليًا، فتح الباب أمام عملية خصخصة تعود بالفائدة على زبانيته/ عملائه المقربين. ومع ذلك، ظلّ دور حزب البعث مهمًا في عهد بشار، إذ شهدت عضوية الحزب توسعًا كبيرًا.

عندما توفي حافظ، كان عدد أعضاء الحزب حوالي (1,4) مليون عضو، وبحلول عام 2005 وصل عدد أعضاء الحزب إلى (1,8) مليون عضو [54]. من المهم الإشارة هنا إلى أن هذه العضوية الكبيرة لا تعكس العدد الحقيقي للأيديولوجيين والمؤمنين، بل هي نتيجة للسياسات الانتهازية والقسرية المتأصلة التي تنطوي على عضوية إلزامية للطلاب، على سبيل المثال.

مثل الرعاية العلوية، استُغلت رعاية حزب البعث وشبكاته من السلطة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) لنظام الأسد، لاختراق الدولة والمجتمع السوريين، ومن ثم تعزيز السلطة الشخصية للمرشد المعلم. كانت شبكات الرعاية حيوية في الوصول إلى شرائح اجتماعية مختلفة، وزيادة أصحاب المصلحة، وتعبئة الجمهور حول السلطة الأبوية.

(54) - إيال زيسر، ضم سورية: بشار الأسد والأعوام الأولى في السلطة (لندن: آي بي توريس وشركاه المحدودة، 2007) ص. 71.

الزبائنية في نظام الأسد

بالإضافة إلى علاقات الرعاية والشخصنة، تعزز السلطة الأبوية الجديدة (نيو باترمونية) لنظام الأسد سلطتها من خلال الزبائنية وشبكاتها. سمحت شبكات الزبائنية للسلطة الأبوية (الباترمونية) بالوصول إلى شرائح اجتماعية جديدة، وأفراد خارج المجموعات المستهدفة لشبكات الرعاية. وتوسعت السلطة الأبوية (الباترمونية) التي اخترقت الحياة السياسية والاجتماعية من خلال علاقات الرعاية، لتتغلغل أكثر في المجال الاقتصادي من خلال الزبائنية. ومع ذلك، تختلف الزبائنية عن علاقات الرعاية في الأمور المتعلقة بها، في حين أن علاقات وشبكات الرعاية تميل إلى أن يكون لها ترتيب هرمي، وبذلك تأخذ شكلًا عموديًا، يمكن أن تكون علاقة الرعاية علاقة أفقية تتضمن تفاعلًا بين المعلم/ الراعي والزبون/ العميل. لذلك، فهي لا تستهدف مجموعة اجتماعية واحدة بطريقة رعاية، ممّا يعني أن يكون المعلم/ الراعي على رأس السلسلة، بل تمتد لتشمل جميع الأفراد في المجتمع، من خلال العلاقات الأفقية بين المعلم/ الراعي والزبون/ العميل، بغض النظر عن انتمائهم الاجتماعي أو تحيزهم. وعلى حين أن علاقات الرعاية تتعلق بسياسات المجموعة، وبذلك تستهدف المجموعات الاجتماعية أو السياسية، فإن الزبائنية مفتوحة لجميع الأفراد الذين يعيشون في ظلّ السلطة الأبوية (الباترمونية).

بينما تتجلى علاقات الرعاية من خلال الرعاية العلوية، ورعاية حزب البعث، وهنا تقتصر علاقات الرعاية الزبائنية على أعضاء المجموعة الاجتماعية أو السياسية، العلويين أو حزب البعث، فمن ناحية أخرى، الزبائنية هي ظاهرة عابرة للطوائف وعابرة للسياسات. في الزبائنية، تُعدّ علاقة المعلم/الراعي - الزبون/ العميل علاقة متبادلة المنفعة، حيث تتضمن بشكل عام مكافأة عسكرية، وليست أيديولوجية. وهكذا، فإن الزبائنية، نسبيًا، (بسبب طبيعتها) تعمل وتزدهر في المجال الاقتصادي. ومن ثم، فمن المفهوم أن هذه الزبائنية كانت موجودة أكثر بين التجار السنّة في المدن الحضرية في سورية، بينما وجدت علاقات الرعاية بين العلويين وحزب البعث قاعدتها بين الطبقة الاجتماعية الدنيا في المناطق الريفية والمدن الصغرى القائمة على الاقتصاد الزراعي، مثل درعا.

وهكذا، تتعدى الزبائنية في سورية حدودها، فلم تعد مقتصرة على المجال السياسي فحسب، بل امتدت أيضًا إلى المجال الاقتصادي. على الرغم من أن القطاع العام، من خلال الاقتصاد المخطط للدولة، له اليد العليا في الاقتصاد السوري، فهذا لا يعني أن القطاع الخاص لا يتمتع باستقلال نسبي، ولا سيّما تجار المدينتين الأكبر، دمشق وحلب. على سبيل المثال، يحتل القطاع الخاص مكانة شبه حصرية في مجال تجارة التجزئة والسياحة والنقل بالشاحنات والعقارات: في عام 1973 سيطر رسميًا على 25 في المئة من تجارة الجملة، و32 في المئة من التجارة الخارجية [55]. ومع بداية الانتفاضة السورية، كان القطاع الخاص يسيطر على 70 في المئة من الاقتصاد السوري [56].

ارتبط مجتمع التجار ورجال الأعمال بشكل عام بالسلطة الأبوية من خلال علاقات الزبائنية. من خلال الزبائنية، ضمن مجتمع الأعمال ترخيصًا لأنشطته، واستفاد أحيانًا من المشاريع التي ترعاها الدولة أو تملكها. في المقابل، حافظ على ولائه للسلطة الأبوية، وانحاز إليها في حالة الأزمات.

(55) - المرجع السابق.

(56) - أورورا سوتيمانو، النخبة السورية للأعمال: شبكات الرعاية واقتصاد الحرب، سورية حكاية ما انحكت.
https://bit.ly/3nWit2j

حقبة حافظ الأسد ومجتمع الأعمال (البزنس)

على عكس أسلافه البعثيين الجدد، الذين كانوا من أكثر الراديكاليين في العالم العربي، في ما يتعلق بإحداث تغيير اجتماعي، بدأ حافظ الأسد بعد توليه السلطة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1970، حقبة مصالحة مع الطبقة الوسطى، وخاصة التجار [57]. حاول الأسد استيعاب المصالح السنّية، من خلال تخفيف القيود الاقتصادية على التجار ورجال الأعمال السنّة [58]. قيّد حافظ السياسات الثورية في المجال الاقتصادي، إذ توقف الحديث عن الجماعية/ التعاونية (collectivization)، وخُفّفت الضوابط التجارية، واكتفت الحكومة ببرنامج قروض للأعمال الصغيرة [59]. أمام وفد من التجار الدمشقيين الأثرياء، في 6 كانون الأول/ ديسمبر 1970، أعلن الرئيس حافظ الأسد نيته القيام بكل ما في وسعه لتعزيز دور القطاع الخاص في التجارة والصناعة السورية [60].

تشكّلت طريقة العمل بين نظام الأسد ومجتمع الأعمال من خلال الزبائنية. بدأت علاقات الزبائنية تتشكل بشكل رئيس بين السلطة الأبوية (الباترمونية) المتمثلة في النخبة الحاكمة السياسية والأمنية، التي تسيطر على الحياة السياسية، ومن ثم على موارد الدولة من جهة، ومجتمع التجار ورجال الأعمال من جهة أخرى. وبموجب ذلك، أُقيمت شراكة بين الضباط العلويين في الجيش والأجهزة الأمنية وطبقة التجار السنّة. كان أداء أبناء كبار القادة جيدًا بشكل خاص من خلال تلك العلاقة، وكان يُطلق عليهم اسم أولاد السلطة، وهم حرفيًا كذلك (أولاد السلطة) [61].

من ناحية أخرى، بدأت هذه الطبقة البيروقراطية الرأسمالية الناشئة حديثًا، أو البرجوازية البيروقراطية، تكون القوة الدافعة وراء رأسمالية المحسوبية (crony). بدأت طبقة جديدة من الأفراد الذين أُثروا في الظهور لتشكيل "رأسماليي المحسوبية"، الذين يشاركون حصة كبيرة من الأنشطة الاقتصادية شبه الرسمية وغير الرسمية. على سبيل المثال، بدأ التهريب، وخاصة من لبنان، في أن يكون أحد القطاعات الاقتصادية غير الرسمية الرئيسة التي يسيطر عليها ضباط الأمن، حيث وفّر 70 في المئة من إجمالي التجارة الخارجية غير العسكرية في أوائل الثمانينيات [62]. ومن الأمثلة الأخرى المثيرة للاهتمام، قضية النفايات النووية، التي سيُتَهَم بها نائب الرئيس السابق، عبد الحليم خدام، وعائلته. ومن المفارقات أن خدام نفسه، بعد انشقاقه عن

(57) - يحيى سادوسكي، «الرعاية والبعث: الفساد والسيطرة في سورية المعاصرة»، ص. 447.

(58) - مارثا نيف كيسلر، سورية: فسيفساء السلطة الهشة، (هونولولو، هاواي: مطبعة جامعة المحيط الهادئ، 2002)، ص. 35.

(59) - يحيى سادوسكي، «الرعاية والبعث: الفساد والسيطرة في سورية المعاصرة»، ص. 447.

(60) - فريد لوسون، لماذا تدخل سورية في الحرب، ثلاثون عامًا من المواجهة. (نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، 1996)، ص. 77.

(61) - فؤاد عجمي، التمرد السوري. (ستانفورد، كاليفورنيا: منشورات معهد هوفر، 2012)، ص. 73.

(62) - يحيى سادوسكي، «الرعاية والبعث: الفساد والسيطرة في سورية المعاصرة»، ص. 454.

النظام، سيصف أسلوب العمل الاقتصادي في ظلّ نظام الأسد بأنه "تحويل الفساد إلى شركات" [63].

قد أثمرت الشبكات التي أقامها النظام مع نخبة من الفاعلين التجاريين في أوقات الأزمات. أكّد بدر الدين الشلاح، رئيس غرفة تجارة دمشق آنذاك، ولاء الشركات الكبرى لحافظ الأسد في عام 1982، عندما سحق النظام بعنف الانتفاضة في حماة [64].

فتح الأسد الباب بحلول التسعينيات لتمثيل مجتمع الأعمال في المجال السياسي الخاضع للسيطرة، من خلال تمهيد الطريق لبعض ممثلي غرفة تجارة دمشق لشغل مقاعد في مجلس الشعب. وبهذا، وسّع النظام قاعدة الحكم، وإن كان دور مجلس الشعب في السياسة السورية، بلا شك، محدودًا ومسيطرًا عليه. وفي نهاية المطاف، لم يكن الرأسماليون قادرين على تحويل قوتهم الاقتصادية المتنامية إلى نفوذ سياسي، ما لم يتصرفوا ويتحركوا في حدود موافقة السلطة الأبوية (الباترمونية).

كانت الزبائنية هي طريقة العمل التي تشكّلت من خلالها العلاقات بين نظام الأسد ومجتمع الأعمال. سمحت العلاقات والشبكات الزبائنية للسلطة الأبوية (الباترمونية) بالإشراف على المجال الاقتصادي وأنشطته، وأحيانًا بتشكيله في ضوء مصلحته. ومن ناحية أخرى، سمحت لمجتمع الأعمال بالوصول إلى موارد الدولة، والحصول على ترخيص للعمل في المجال الاقتصادي، الذي استمر في التمتع باستقلال نسبي، ولم يتحول إلى قطاع تحكمه الدولة بالكامل كما في حالة الأنظمة الشمولية.

(63) - ليون غولدسميث، «العلويون في سورية وسياسة انعدام الأمن الطائفي: منظور خلدوني»، مركز أورسام، المجلد. 3، العدد 1، (2012)، ص. 44

(64) - أوروا سوتيمانو، النخبة السورية للأعمال: شبكات الرعاية واقتصاد الحرب، 2016.

في ظل حكم بشار: من الزبائنية إلى الرعاية

في ظلّ حكم بشار، قُيّد المجال الاقتصادي المستقل نسبيًا، وكان التجار الحضريون السنّة يعملون فيه في عهد حافظ. شهد دور بشار ظهور وتوطيد طبقة جديدة من رجال الأعمال، كثير منهم من الطائفة العلوية، وتمتعوا بعلاقات وثيقة مع السلطة الأبوية (الباترمونية). وقد حاولت تلك الطبقة الناشئة حديثًا إضفاء الطابع الأبوي (الباترموني) على المجال الاقتصادي أيضًا. وبذلك، يمكن القول إن طبقة أولاد السلطة التي بدأت في الظهور أثناء حكم حافظ استمرت في التماسك والتوسع في عهد بشار، ومهّد ذلك الأمر الطريق للارتقاء بأولاد السلطة.

تسير عمليات التحرير (اللبرلة) التي انطلقت في سورية في عهد بشار الأسد، في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بالتوازي مع ترسيخ أبوية (النزعة الباترمونية) قائد النظام في المجال الاقتصادي. ومن ثم، كان التحرير (اللبرلة) يسير لخدمة مصالح مجموعة من "روّاد الأعمال"، يتمتعون بعلاقات وثيقة مع المعلم/ الراعي. يجسّد رامي مخلوف (ابن خال بشار الأسد) هذا النمط الجديد من الفساد، حيث يستخدم الأفراد المقربون من النظام الروابط العائلية، من أجل "الإثراء الذاتي والافتراس" في القطاع الخاص [65]. وهو ما كان النتيجة لذلك. نُقلِت الأصول العامة بحكم الأمر الواقع إلى أيدي رأسماليي المحسوبية، والشبكات المميزة، والشركات المرتبطة بالأسد من خلال الروابط العائلية والعشائرية، وأُهملت الأعمال الصغيرة والقطاع الزراعي، وهو العمود الفقري للاقتصاد السوري [66].

على سبيل المثال، احتكر رامي مخلوف قطاع الهاتف المحمول في سورية، الذي بدأ العمل في عام 2000 من مشغلّين اثنين، كان مخلوف يمتلك حصة 75 في المئة من المشغل الأول (سيريتل)، وكان أحد مالكي المشغل الثاني [94]. وإضافة إلى ذلك، بدأت السلطة السورية بمضايقة شركاء مخلوف عبر الأجهزة الأمنية. وهكذا، انتهى به الأمر إلى التحكم في المشغلّين [67]. عندما انتقد رياض سيف، رجل الأعمال السنّي وعضو مجلس الشعب في ذلك الوقت، ما أسماه "مخالفات في تراخيص الهاتف"، سرعان ما اعتُقل وسُجن [68]. وبعدما فرّ سيف من البلاد، انضمّ إلى المعارضة بعد الانتفاضة، وانتُخب رئيسًا للهيئة العامة للائتلاف الوطني السوري لقوى المعارضة والثورة، في أيار/ مايو 2017. ومن الأمثلة الأخرى، محاولة مخلوف الاستيلاء على وكالة (ديملر -بنز Daimler-Benz) التي تملكها شركة عمر سنقر وأولاده، وتعود إلى عائلة سنقر، وهي

(65) - سورين شميت، «الدور التنموي للدولة في الشرق الأوسط: دروس من سورية»، الدولة والاقتصاد السياسي للإصلاح في سورية، (فايف، اسكتلندا: مركز جامعة سانت أندروز للدراسات السورية، 2009)، ص. 33.

(66) - أورورا سوتيمانو، النخبة السورية للأعمال: شبكات الرعاية واقتصاد الحرب، 2016.

(67) - سورين شميت، «الدور التنموي للدولة في الشرق الأوسط: دروس من سورية»، ص. 30.

(68) - أنطوني شديد، رجل الأعمال السوري يصبح نقطة جذب للغضب والمعارضة. نيويورك تايمز، http://www.nytimes.com/2011/05/01/world/asia/01makhlouf.html

عائلة برجوازية سنّية دمشقية قديمة [69]. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ هنا أنّ علي ووسيم سنقر (أفراد من عائلة سنقر) موّلا أحد مؤتمرات المعارضة في أيار/ مايو 2011 [70].

حاول نظام الأسد، الذي صاغ سلطته الأبوية (الباترمونية) وعززها داخل جهاز الدولة وفي المجال السياسي والاجتماعي من خلال اختراق علاقات الرعاية (التي تشمل الزبائنية)، الإشراف والسيطرة على المجال الاقتصادي من خلال علاقات الزبائنية. ومع ذلك، فقد رُقّيت طريقة عمل السلطة الأبوية (الباترمونية) في المجال الاقتصادي، طوال مدة حكم حافظ وبشار الأسد، من علاقات بسيطة بين المعلم/ الراعي والزبون/ العميل في الأعوام الأولى، إلى شبكات زبائنية أكثر منهجية بحلول نهاية عهد حافظ، حيث وصلت هذه الترقية/ التحديث إلى محاولة تأسيس رعاية للمجال الاقتصادي في ظلّ حكم بشار، والقضاء نهائيًا على أي مساحة للنشاط الاجتماعي غير الخاضع للسلطة الأبوية (الباترمونية).

يمكن تفسير هذا الاتجاه لإضفاء الطابع الأبوي (الباترموني) على المجال الاقتصادي، وفق تفسيرين؛ الأول أن يأتي كخطوة ثانية معقولة بعد رعاية المجال السياسي والاجتماعي، حيث لا يُتوقع أن تتوقف السلطة الأبوية (الباترمونية) عن التوسع والتغلغل في جميع جوانب المجتمع لترسيخ سلطتها أكثر فأكثر. وفي نهاية المطاف، الزبائنية المنهجية هي التي يمكن أن تحوّلها خطوة إلى الأمام إلى علاقة رعاية بمرور الوقت. أما التفسير الثاني فيمكن العثور عليه في الدائرة المقربة من بشار الأسد، التي بدأت تضم رجال أعمال مثل رامي مخلوف، وهي الفئة التي لم تكن موجودة في حاشية حافظ الأسد. ستسعى هذه النخب الاقتصادية والتجارية إلى مزيد من الاختراق ورعاية المجال الاقتصادي لمصلحتها. وبينما ركّزت النخبة الأمنية والسياسية التقليدية تركيزًا أكبر على الاختراق ورعاية المجالات السياسية والاجتماعية، بدأت النخب الاقتصادية الجديدة المستفيدة في استهداف المجال الاقتصادي أيضًا.

(69) - سورين شميت، «الدور التنموي للدولة في الشرق الأوسط: دروس من سورية»، ص. ص 31 -32.

(70) - أورورا سوتيمانو، النخبة السورية للأعمال: شبكات الرعاية واقتصاد الحرب، 2016.

الخاتمة

لا شك في أن نظام الأسد يمثّل حالة نظام استبدادي، ومع ذلك، فإن هذا الاستبداد يجب أن يُصنَّف تحت بند واحد يصف النظام، ويميزه عن الأنظمة الاستبدادية الأخرى. لا يمثّل نظام الأسد حالة نظام شمولي (حتى ما بعد شمولي) أو نظام سلطاني. من ناحية أخرى، يبدو أن حجج الاستبداد الشعبوي، وترقية مستوى الاستبداد، والاستبداد ما بعد الشعبوي، والمفاهيم المرتبطة بها، تعاني نقصًا، إن لم يكن غيابًا؛ فهي تميل إلى تحليل ومناقشة الاستبداد في إطار الدوافع السياسية والاقتصادية، وأحيانًا كنتيجة لها. وبذلك، تتجاهل الدافع الشخصي، الذي ينبغي أن يكون نقطة انطلاق لتحليل الاستبداد، وتطور الأنظمة الاستبدادية. في المقابل، يضع التصور الأبوي المشخصن الجديد (نيو باترموني) الهيمنة الشخصية في المركز، ويقرّ بها بصفتها قوة دافعة وراء التحول السياسي والاقتصادي، مع الأخذ في الحسبان دور الرعاية، فضلًا عن العلاقات الزبائنية.

يبدو أن الأبوية المشخصنة الجديدة (نيو باترمونية) تقدّم إطارًا متكاملًا وتوضيحيًا لنظام الأسد والأنظمة المماثلة. فهي تعمل على تعزيز الهيمنة الشخصية للمعلم (الباترون)، واختراق المؤسسة البيروقراطية، وكذلك المجالات السياسية والاجتماعية، من خلال آليات مثل علاقات المحسوبية والزبائنية.

في صميم إستراتيجية الشخصنة لنظام الأسد، يعمل دور الزمرة/ الشلّة الموالية التي يكون أعضاؤها مسؤولين عن إحكام السيطرة على أجهزة الدولة، وعلى وجه الخصوص الأجهزة الأمنية والجيش. إن إضفاء الطابع الشخصي على الفروع الأمنية والجيش حوّلها إلى ما أسماه ماكس فيبر "القوات الأبوية/ الباترمونية". بالتوازي مع الحفاظ على السيطرة الشخصية على الدولة، بُنيت عبادة شخصية الأسد في المجال العام والعالم الفكري، وحُوّلت سورية إلى "سوريا الأسد".

في غضون ذلك، استخدم نظام الأسد علاقات الرعاية المزدوجة من أجل اختراق المجال البيروقراطي والمجتمع، (رعاية العلويين ورعاية حزب البعث). ورُتّبت شبكات الرعاية بين العلويين وحزب البعث بطريقة هرمية مع وجود المعلم (الباترون) في القمة، فمكّنت المعلّم من اختراق الدولة والمجتمع. من ناحية أخرى، إن الزبائنية آلية أخرى تعمل في عمليات الاختراق الأبوي المشخصن (الباترموني)، التي من خلالها تمكّنت السلطة الأبوية المشخصنة (الباترمونية) من أن تصل إلى المجال الاقتصادي. ومع ذلك، بعد صعود بشار إلى السلطة، كان هناك اتجاه لشخصنة أبوية توريثية (باترمونية) للمجال الاقتصادي، من السلطة الأبوية (الباترمونية)، ورجال الأعمال المخلصين المرتبطين بها. وهكذا، اتخذت السلطة الأبوية المشخصنة (الباترمونية) في عهد بشار خطوة إلى الأمام لتوسيع تغلغلها، بإخضاعها المجال الاقتصادي أيضًا للعلاقة الأبوية المشخصنة.

توضيح لآليات السيطرة والاختراق للهيمنة الأبوية المشخصنة الجديدة لنظام الأسد

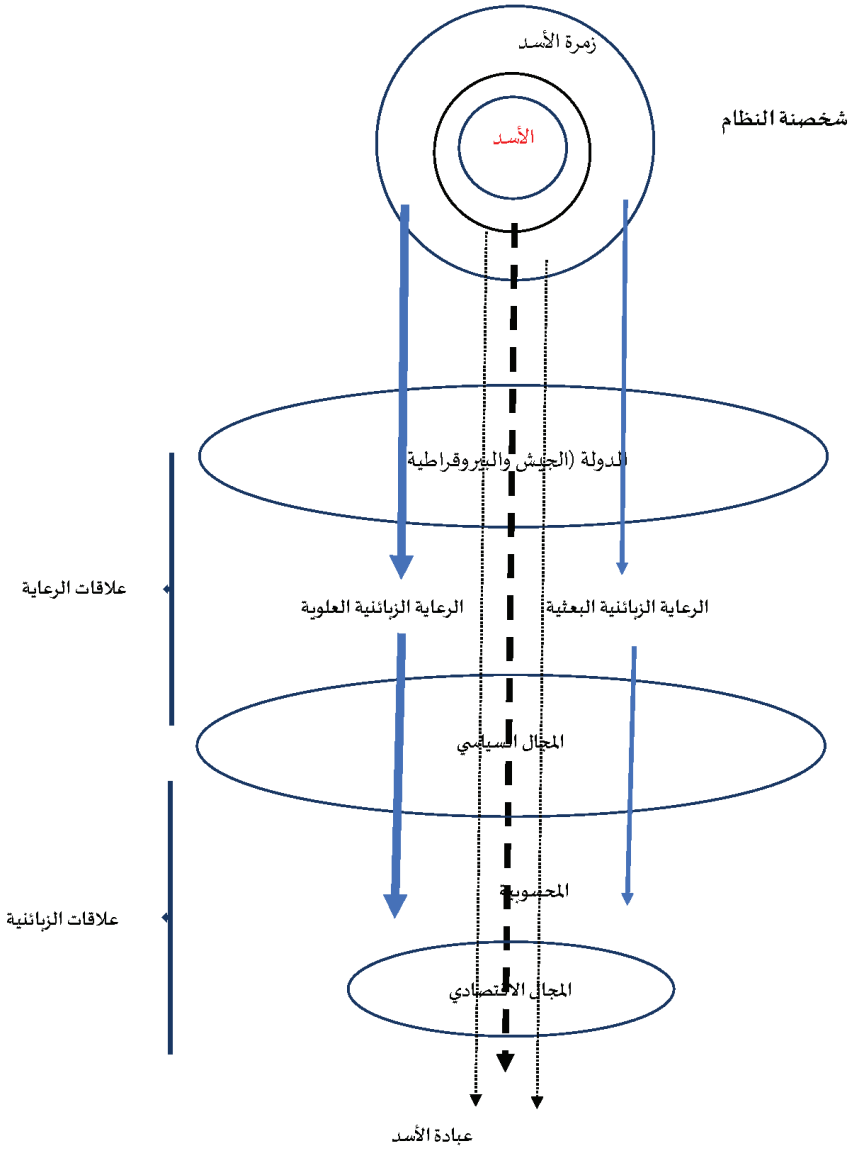

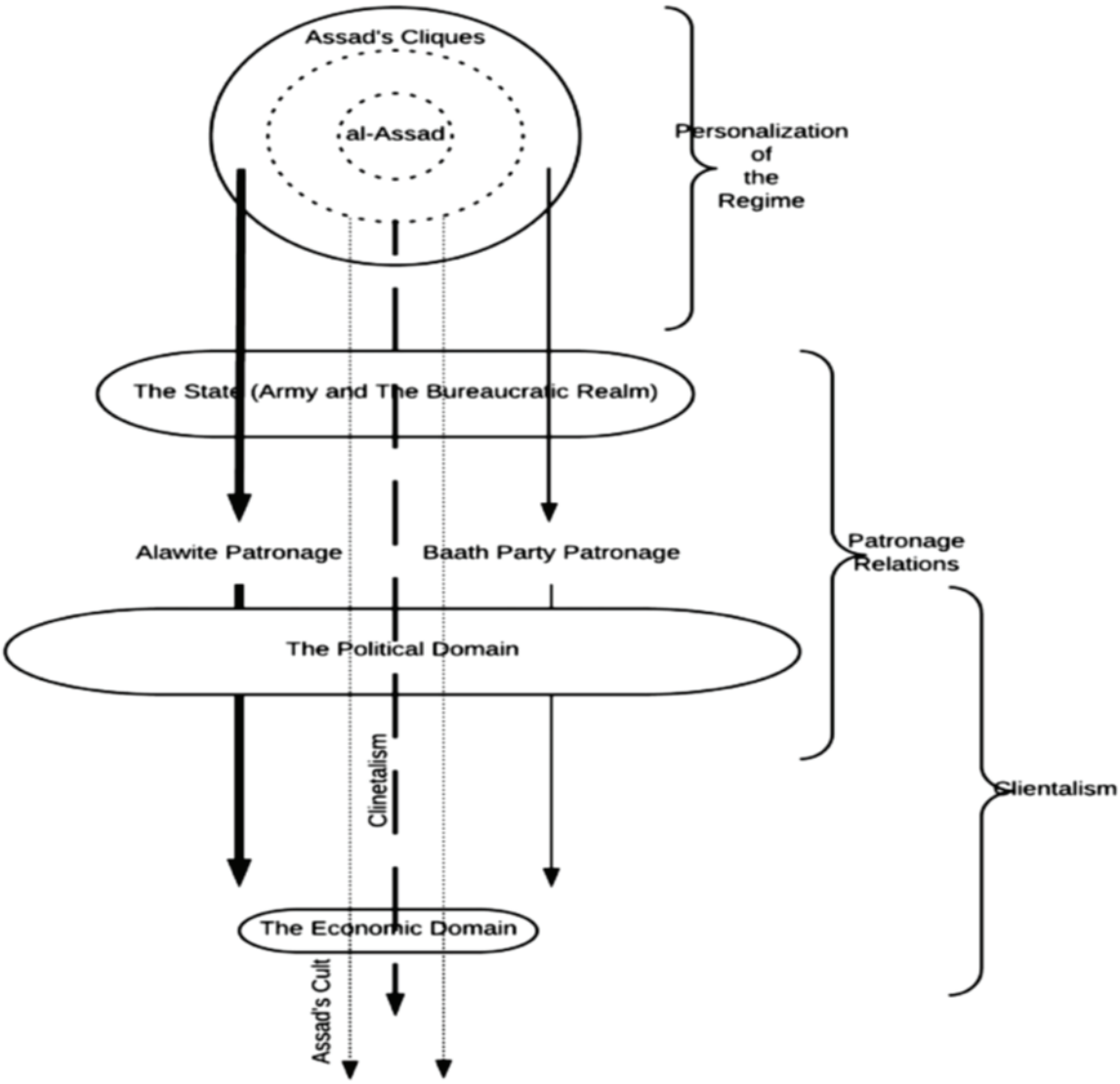
Assad's Cliques
al-Assad
Personalization of the Regime
The State (Army and The Bureaucratic Realm)
Alawite Patronage
Baath Party Patronage
Patronage Relations
The Political Domain
Clinetalism
Clientalism
The Economic Domain
Assad's Cult

مركز حرمون للدراسات المعاصرة

هو مؤسّسة بحثية مستقلة، لا تستهدف الربح، تُعنى بإنتاج الدراسات والبحوث السياسية والمجتمعية والفكرية المتعلقة بالشأن السوري خاصة، والصراع الدائر في سورية وسيناريوهات تطوره، وتهتم بتعزيز أداء المجتمع المدني، ونشر الوعي الديمقراطي. كما تهتم أيضًا بالقضايا العربية، والصراعات المتعلقة بها، وبالعلاقات العربية الإقليمية والدولية.

يُنفذ المركز مشاريع ونشاطات، ويُطلق مبادرات من أجل بناء مستقبل سورية، على أسس وقيم الديمقراطية والحرية والمساواة وحقوق الإنسان وقيم المواطنة المتساوية، ويسعى لأن يكون ميدانًا للحوار البنّاء، وساحة لتلاقي الأفكار.

- أبحاث سياسية
- أبحاث اجتماعية
- أبحاث اقتصادية
- ترجمات
- أبحاث قانونية

www.harmoon.org

مركز حرمون للدراسات المعاصرة
Harmoon Center for Contemporary Studies
Harmoon Araştırmalar Merkezi
Doha, Qatar Tel. (+974) 44 885 996 PO.Box 22663
Istanbul, Turkey Tel. +90 (212) 813 32 17 PO.Box 34055
Tel. +90 (212) 524 04 05